مكتبة دير السريان

ثلاث قصص تعليمية من الأدب الروحى

للقديس
القس بطرس السدمنتى

اعداد
الأنبا متاؤس
أسقف ورئيس دير السريان

مكتبة دير السريان العامر

تتقدم

ثلاث قصص تعليمية من الأدب الروحي

للقديس القس بطرس السدمنتي

عن المخطوطة ٣٧٠ طقوس بمكتبة دير السريان العامر

إعداد

الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

أســم الكتاب : ثلاث قصص تعليمية من الأدب الروحى

إعـــــــداد : الأنبا متاؤس اسقف ورئيس دير السريان العامر

الطـــــبعة : الأولى

المطـــــبعة : امبريال بعابدين ت : ٢٣٩١٤٦٧٠ ف : ٢٣٩٠٢٩٨٨

البريد الإلكترونى : E-mail: imperial.press@yahoo.com

رقم الإيداع : ١٩٩٤١ / ٢٠١٤

صاحب الغبطة والقداسة

البابا المعظم الأنبا تواضروس الثانى

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٨)

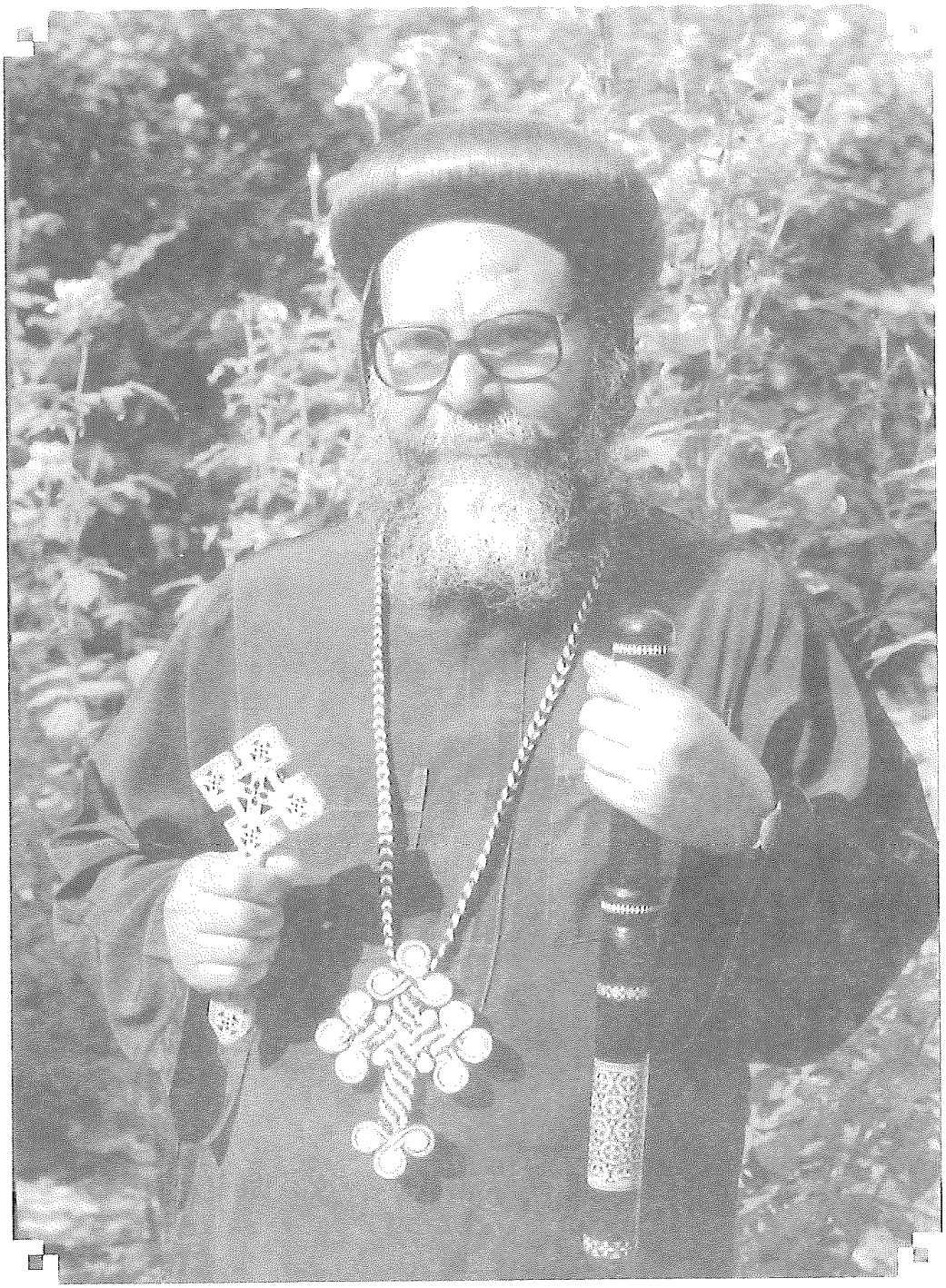

صاحب النيافة الحبر الجليل

الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء السريان

باسم الآب والابن والروح القدس الله الواحد آمين

تقديم

بين يديك أيها القارئ العزيز ثلاث قصص جميلة من الأدب الروحي كتبها القس بطرس السدمنتي وجدناهم في المخطوطات بمكتبة دير السريان العامر. كل هذه القصص تحث وتشجع على العطاء والرحمة والصدقة على الفقراء والمساكين كما تشجع على الزهد في العالميات والاهتمام بالحياة الأخرى.

إنها قصص رائعة من الأدب الروحي المسيحي السامي، قصص جذابة يبدأ القارئ في قراءتها فلا يتركها حتى ينتهي منها بسبب عمقها وطلاوتها.

ثمرات حلوة من تأملات آبائنا القديسين تدل على تعمقهم في الحياة الروحية وفهمهم الرفيع لما هو نافع للإنسان في رحلته للأبدية.

فالعطاء هو أول أركان العبادة المسيحية كما رسمها لنا ربنا يسوع المسيح.

١ – متى صنعت صدقة. ٢ – متى صليت. ٣ – متى صمت (مت ٦).

بالعطاء والصدقة نعبد الله بأموالنا.

وبالصلاة نعبد الله بأرواحنا.

وبالصوم نعبد الله بأجسادنا.

لنا في الصدقة تركة.

وفي الصلاة شركة.

وفي الصوم بركة.

سبب خلقة الإنسان أن يمجد الله بأعماله الصالحة وعبادته المقبولة قال الرب: " هَذَا الشَّعْبُ جَبَلْتُهُ لِنَفْسِي. يُحَدِّثُ بِتَسْبِيحِي " (إش ٤٣ : ٢١) وقال: " لِمَجْدِي خَلَقْتُهُ وَجَبَلْتُهُ وَصَنَعْتُهُ " (إش ٤٣ : ٧)، كما قال الحكيم: " اَلرَّبُّ صَنَعَ الْكُلَّ لِغَرَضِهِ " (أم ١٦ : ٤).

نتركك لتتعزى بهذه القصص الروحية الجميلة والأدب السامي الرفيع لعلك تنتفع بها والرب يعينك. بشفاعة أمنا العذراء القديسة الطاهرة مريم وصلوات أبينا المكرم البابا تواضروس الثاني.

ولإلهنا كل مجد وكرامة إلى الأبد آمين.

الأنبا متاؤس

أسقف دير السريان العامر

الصوم الكبير ٢٠١٤م

نبذة عن مؤلف هذه القصص الروحية القديس القس بطرس السدمنتي

الراهب القس بطرس السدمنتي هو أحد علماء الكنيسة القبطية في القرن الثالث عشر. لم يذكر التاريخ يوم ميلاده أو نياحته. ولكننا نعرف أنه ترهب في دير الشهيد العظيم مار جرجس بسدمنت الجبل على ضفاف البحر اليوسفي على الحدود بين محافظتي الفيوم وبني سويف وهو بالقرب من قرية سدمنت ومن مدينة ومركز أهناسيا التابع لمحافظة وإيبارشية بني سويف. وهو ما زال باقياً حتى الآن وهو مركز إشعاع للمنطقة كلها.

اشتهر الراهب القس بطرس السدمنتي بمؤلفاته اللاهوتية والروحية التي كتبها بنفسه أو ترجمها من اللغة القبطية.

ذكره كثير من العلماء والمؤرخين كعالم قبطي ضليع منهم ابن كبر والعلامة جورج جراف والمستشرق بطرس فان وغيرهم.

ويذكر التاريخ الكثير من مؤلفاته مثل كتاب القول الصحيح في آلام السيد المسيح وهو كتاب لاهوتي رائع، وكتاب حل الشكوك، وهذه القصص الثلاث المذكورة في هذا الكتاب بعنوان خبر إيسوذورس الإسكندري وخبر إشعياء وتعليمه وخبر ببنوده المتردي. غير مؤلفات أخرى كثيرة.

بركة صلواته فلتكن معنا آمين

بسم الله الخالق الحي الناطق

نبتدي [illegible] حياة

[illegible] الفاضل [illegible]

القديس [illegible] بصلوات

[illegible]

اخبروا عن رجل كان مبارك جدا • يفعل
الخير والايثار • وكان مقيما بمدينة الاسكندريه •
غنيا جدا موسرا بالعطايا دايما في مدة حياته •
رحوما رووفا كثير التحنن والشفقه على
المساكين • وكان يجري عليهم النفقه بالكفايه
لسد حاجتهم وضروري نفقتهم • كان هذا
سيرته الى اخر نسمته • واسلامه روحه بيد
خالقه الى راحة الابد • ثم خلف ولدين
مباركين ذكور • مذكورين بالفعل الحسن
يشبه اباهما • اسم احدهما اشعيا • والاخر يدعى
اسيا • فقال اشعيا لاسيا يا اخي لا تظن

انا

القصة الأولى

القديس إشعياء

وتلميذه

باسم الله الخالق الحي الناطق له المجد دائماً أبدياً آمين

مقدمة القصة

﴿ نبتدئ بمعونته بشرح ما قاله الأب الفاضل بطرس السدمنتي – نيح الله نفسه بصلوات جميع الشهداء والقديسين آمين. ﴾

قيل عن رجل كان مباركاً جداً يفعل الخير والإيثار وكان مقيماً بمدينة الإسكندرية، غنياً جداً موسراً بالعطايا دائماً طوال مدة حياته كما أنه كان رحوماً رؤوفاً كثير التحنن والشفقة على المساكين وكان يعطيهم النفقة الكافية لسداد احتياجاتهم وضرورياتهم. كانت هذه سيرته إلى آخر نسمة من حياته واستلام روحه بيد خالقه إلى راحة الأبد. وقد كان له خلفاً ولدين مباركين مشهوران بالفعل الحسن يشبهان أباهما في القدوة الحسنة واسم أحدهما " إشعياء " والآخر يدعى " آسيا ".

" أَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ " (غلا ٢: ٢٠)

قال إشعياء لأخيه آسيا: يا أخي لا تظن أننا ورثنا من بعد أبينا المال فإن الموت هو الوارث لأننا نعلم يقيناً أن الموت الذي نقل أبانا من

هذا العالم فهو يُلحقنا به وهذا أمر طبيعي لا نقدر أن نهرب منه. فقال له: يا أخي فما هي الحيلة لذلك الأمر ونحن نطلب الحياة؟

فأجابه إشعياء قائلاً: له: يا أخي وأين الحياة؟! فإني أعلم جيداً ليست الحياة إلا في المسيح ربنا الحي المحيي. فتعال يا أخي نعطي كل ما خلّفه أبونا للمساكين ونتبع المسيح الحي لنحيا به لأن ليس بغيره حياة.

فقال آسيا: يا أخي ونقتات بأي شيء؟

فأجابه أخاه: بالخبز السمائي.

فسأله آسيا: وما هذا الخبز السمائي؟

فأجاب إشعياء: المسكنة لأجل المسيح، والاغتذاء بالصبر والرجاء فتكون شبه المساكين المحقين إخوة المسيح.

تعجب آسيا قائلاً: الصبر والرجاء أفهو طعام؟!

فقال له إشعياء: نعم لأن الرجاء يغذي النفس والشوق إلى الله يرويها كما قال داود النبي: " اللهم أن نفسي ظمئت إليك " [1] وكما قال أيضاً: " كما يتوق الإيّل إلى ينابيع المياه كذلك تاقت نفسي إلى الله الحي " [2]. نعم أوجاع المصائب لذة للإنسان العمَّال في الروحيات

---

(1) مز ٤٢: ١.

(٢) مز ٤٢: ١.

كما يتلذذ الغني بالمال وكل من أراد الكمال والالتصاق بالله فإن غذاءه المسكنة والصبر والتجلد للأحزان.

فقال آسيا: الصبر على الأحزان ليس من شأنه بأن يغذي النفس ولا أن يفرحها.

فرد عليه أخوه قائلاً: يا أخي إن الفاعل لذلك هو النية والرجاء وجودة الاستعمال لا طبيعة الأحزان والدليل على ذلك أن الإنسان قد يغفل وإن كان محتاجاً إليه وقد يلتذ بالدواء المر الذي لآلامه من أجل إزالة المرض والحصول على العافية. وأيضاً قد يفرح الإنسان بالذي يحزنه لما يرجوه من الغاية الصالحة لهذا الأمر، فنجد رسل ربنا يسوع المسيح قد فرحوا لما جُلِدوا وما صار ذلك الفرح إلا من تصورهم جميل الجزاء عوضاً عن الإهانة ولكونهم في ذلك تشبهوا بسيدهم سيد الكل ولكونهم أيضاً قد حصلوا على قصد تام من المقاصد الشرعية المسيحية لأن إنالة الأحزان والهوان لأجل السيد المسيح هي أكمل الأعمال.

اقتنع آسيا بذلك قائلاً لأخيه: لقد وافقت على القول فما هو العمل؟

فأجاب إشعياء: إن العمل المعجل هو الزهد في الدنيا وترك هذه القنية التي في أيدينا لإخوة المسيح ربنا.

صمت آسيا قليلاً ثم قال: قد رأيت ألا أفرق ما يخصني دفعة واحدة بل أكون كالوكيل لسيدي أخدم المساكين إلى أن ينفذ أو ينفذ العمر.

فقال إشعياء: لست أنا ممانعاً لك فيما استصوبته لنفسك في رضا المسيح له المجد ثم ترك إشعياء أخاه ليعمل ما اختاره لنفسه في إرضاء ربنا يسوع المسيح أما هو فسلك طريقاً آخر.

" إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتْبَعْنِي " (مت ١٩: ٢١)

حمل إشعياء كل ما يخصه ومضى إلى برية الآباء الرهبان ووزع كل ماله على المساكين والرهبان وبقى فقيراً من يومه ثم أنه داوم على أن يكد بيديه ليقتات ويحرص على أن يستبقي شيئاً من عيشه ليعطيه للمساكين وبدأ يقاسي من ضرورة العجز وصعوبة العوز ما لم يقاسيه أحد. ففي بعض الأوقات كان يُغلب من الحنو والشفقة حتى يأخذ من قوت يومه ليغذي به من ليس له شيء ثم يبيت هو جائعاً وكان يضطره الأمر إلى أن يخلع ثوبه الضروري ليستر به المسكين

العريان ويبقى هو عارياً منضراً من الحر أو البرد إلى أن عرف بعض الرهبان هذا الأمر فمن كان له شيء يزيد عن حاجته كان يعطيه له ليسد عوزه.

" مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ "

(مت ٥: ٤٢)

أحد تلاميذ القديس إشعياء سأله يوماً قائلاً: يا أبي إذا جاءني إنسان فقير ولم يكن عندي غير ما أنا محتاج إليه فقط، فهل أدفعه له أم لا؟

فأجاب المعلم: لا تفعل ذلك.

فتساءل التلميذ: فلماذا تفعل أنت يا أبي هكذا؟!

فأجاب الأب المعلم: يا بني إن النافع لي مضر لك أنت.

فسأل التلميذ: لِمَ ذلك؟

أجاب المعلم قائلاً: لأنني أتلذذ بذلك، أما أنت فتتألم. وربما تحملك شدة الضرورة وألم العجز والعدم إلى الندم على الخير الذي تفعله ثم بعد ذلك تقطعه أو يحملك ذلك إلى أن تقع في المحظور. فالأفضل لك أن تتصدق بما يفضل عن حاجتك واعترف بضعفك لله وتصور نقصك واسأله الكفاية والاستقلال بأكمل الأعمال. وإذ لم

تجد فضلة تعطيها للمحتاج فعزيه وتوجع لحاله فإذا نظر الله سبحانه لجميل نيتك وترفقك فله الاختيار أن يرقيك أكمل الأعمال وفي أن يبقيك على ما أنت عليه.

" كُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ " (مت ٥ : ٤٨)

سأل التلميذ الأب إشعياء: هل لله اختيار أن يؤخر عن الإنسان الكمال ويقف به في أقل الأعمال؟!

أجاب المعلم: نعم.

فقال التلميذ: كيف يصبح ذلك يا أبي وقد قيل عن الله إنه هو المعطي والجواد ويؤثر لخلقه الخير كله؟

قال المعلم: إن الباري سبحانه يفعل في الخلق كله بشرط الاستعداد والقبول. ودواء الإنسان خاصة بشرط كونه قابلاً ومستعداً ومختاراً. والله ينظر إلى الغاية أيضاً. فلهذا ما كان الإنسان مستعداً له ومنتفعاً به في الحاضر وكانت آخرته مع ذلك صالحة فلا يؤخر الله عنه إصلاحه.

فسأل التلميذ قائلاً: كيف أعلم الصالح دون غيره حتى أجد في طلبه؟

أجاب المعلم: إما من نفسك بالتجربة الكثيرة، وإما من الغير بالنظر الشديد.

فسأل التلميذ: هل تجربة الإنسان لنفسه بنفسه كافية؟

فأجاب المعلم: مع وجود الأفاضل وأرباب النظر تكون كافية.

قال التلميذ: لِمَ ذلك؟

أجاب المعلم: لأن رأي الأكثرين أفضل والشيء الواحد إذا جرب من أقوام كثيرين كان مُختبراً بالأكثر ولا سيما أن الغالب على الإنسان محبة ذاته، والمحب مشفق لا يرى التكلف والذي يسير بحسب المنفعة عدل ولهذا قيل: الصواب الكثير يوجد في المشورة الكثيرة "[1]. لهذا ما أصاب بالأكثر إلا من استشار ولا خاب بالأكثر إلا من اقتنع برأي نفسه. فمثلاً لا نجد أفضل ولا أحكم من موسى النبي وقد استشار وانتفع بالمشورة والرسول بولس بالرغم من أفضليته وكفايته عرض بشارته على الرسل وعُضِدَ منهم بالرأي الصائب وانتفع برأيهم عليه.

فسأل التلميذ: فإذا لم يجد الإنسان من يثق إليه في إفشاء سره ولا يجد أيضاً مجرباً يُرشَد برأيه فماذا يفعل؟!

---

(١) أم ١٥: ٢٢.

فأجاب المعلم: يجب أن يُكثر الطلبة إلى الله تعالى مع التوسلات والتضرعات وأيضاً يستشفع بمن أرضى الله لأن الصلاة تنير النفس وتجلي القلب والذهن ومع جلي الذهن واستنارة النفس ينكشف الرأي الصائب والرأي – مهما كان – الذي وجد نفسه تسكن عليه وقلبه يميل إليه بعد هذا الجهاد في الابتهال الدائم والتضرع والتوسل والانسكاب والاستشفاع بعون الله فهذا هو الرأي الصائب الذي يجب أن يفعله. لأن الإنسان إذا عدم المشير والمعين وألقى همه كله على الله وعوَّل عليه بكليته فلن يعدم الصواب أبداً.

سأل التلميذ: يا أبي عرفني أفضل الأعمال؟

أجاب المعلم: يا ابني إنما يجب أن تسأل عن الأنفع وليس عن الأفضل؟

تحير التلميذ قائلاً: لِمَ يا معلمي ذلك؟

أجاب المعلم: لأن الأفضل قد يكون مضراً بك ولكنه نافع لغيرك.

فقال التلميذ: لكن أشتهي أن أطلع على الأفضل.

فقال المعلم: إن أفضل الأعمال ما شابه فيه الإنسان أفضل العاملين وهو الباري تعالى.

قال التلميذ وما هو؟

قال المعلم: هو الإحسان العام ولهذا قال سيدنا كلنا: " كونوا كاملين مثل أبيكم السمائي فهو كامل ". وأفاد جهة الكمال وأوضح بأنها الجود والرحمة بقوله: " إنه المشرق شمسه على الأخيار والأشرار والممطر على الصالحين والطالحين "[1].

فسأل التلميذ: الرحمة بماذا يا معلمي؟

أجاب المعلم: كل ما ينفع به غيرك وتنتفع أنت به عند الله سبحانه قولاً كان أو فعلاً أو صدقة أو كلاماً أو غير ذلك.

فسأل التلميذ: إذا كانت أجزاء الرحمة كثيرة وكنت أنا عاجز عن القيام بكل واحدة منها فهل يكفيني البعض في التشبه بالآب السماوي؟

أجاب المعلم قائلاً: نعم لأن المماثلة تصح في البعض والقصد هو أن يماثل الإنسان الباري في فضيلة الجود حسب الطاقة.

قال التلميذ: إذاً يمكن الخلاص بدون استيفاء أجزاء الرحمة.

قال المعلم: نعم لأن زكا ما استكمل جميع أقسام الرحمة ومع ذلك حظى بالخلاص. وكذلك الامرأة الأرملة.

---

(١) مت ٥: ٤٥.

سأل التلميذ: إذا كانت الرحمة أفضل الأعمال وأنها لا تثمر إلا بالمال فلماذا اشترط سيدنا على طالب الكمال بإطراح المال كله؟

أجاب المعلم: اسمع يا بني أن الرحمة أقسام فبعضها لا تتم بدون المال والقنية وبعضها يتم بدون المال، بل قد يكون المال والقنية مضراً ببعض أقسام الرحمة. فإن الذي تجرد من العالم ونصب نفسه للصلاة والابتهال لأجل الكل ينضر بالقنية ويتأخر عن كمال غرضه بجمع المال وأيضاً نحن إذا قلنا أن الرحمة هي أفضل الأعمال فلم نرد بذلك إلا الأعمال المتعدية أي الأعمال التي تكون من أجل الآخرين لتعزيتهم بطريقة مباشرة لكن يوجد لنا عملاً آخر أفضل من هذه لا يتعدى.

فسأل التلميذ: ما هو؟

أجاب المعلم: قطع العلاقات والتعلق بالخالق وحده والصلاة بالروح والمناجاة مع الله هذا هو القسم الأفضل والدليل على أفضليته إنه عمل الملائكة وعمل الأفاضل في الدنيا والآخرة لأن الصلاة بالروح هي عمل (علاقة) مع الله أما الرحمة فهي عمل (علاقة) مع المخلوق وهناك فرق بين مناجاة الخالق ومباشرة المخلوق. وتفضيل الرحمة يصحُّ بالقياس إلى هذا العالم خاصة فهي عمل يختص بهذا الوجود وينقطع

بالموت أما فضيلة الصلاة فهي تدوم وتبقى مع النفس وتصير أفضل قسم في العالم الروحاني.

فسأل التلميذ قائلاً: إذا كانت الرحمة عملاً يختص بالباري سبحانه وكان الباري أفضل العاملين فكيف تكون الصلاة أفضل عمل وهي تختص بالمخلوق ويتشابه فيها المخلوق دون الخالق؟

فأجاب المعلم: إن الصلاة والمناجاة عبارة عن توجه المخلوق إلى الخالق والقصد بها طلب التقوى وحصول الكفاية والرحمة. والرحمة هي عبارة عن إنالة خيراً ونفعاً أو إزالة شراً أو ضرراً والباري تعالى غني مليء غير محتاج البتة وهو سبب وجود الكل وهو ينبوع كل خير بل هو الخير كله وهو المقصود من العمل فلهذا يختص بالرحمة دون الصلاة. والذي يتضح من هذا جميعه أن الرحمة أفضل عمل يتشبه به الإنسان بالخالق لأن الرحمة تحفظ النظام للخاص والعام. والصلاة بالروح والمناجاة مع الله والتعلق به أفضل عمل يعمله المخلوق مع الخالق.

فسأل التلميذ: أفما يجوز الجمع بين الأمرين معاً؟!

أجاب المعلم: يجوز لكن على أية حال المتخلي عن أمور هذا العالم والمصلي بالروح فهو يكون على أفضل الأقسام لأنه غير مكترث

بمصالح بدنه مستغرقا في المناجاة مع الله وبهذا يعدم الالتفات إلى المخلوق والنظر في مصالحه.

قال التلميذ: يا أبي قد أخبرتني وعرفتني هذه الأمور فما النافع بي ولي من الأقسام كلها؟!

فأجاب المعلم قائلاً: يا بني ابكِ على خطاياك وتنصل من الذنوب بالإقلاع والاستغفار واسأل الله الرحمة والمسامحة والعون والعصمة فيما بقى من العمر وتصوَّر فراقك من هذا العالم كل يوم وتوقع ورود الصوت إليك كل ساعة قائلاً لك: " هذه الليلة تطلب نفسك منك "[1]. وليكن المنبر الرهيب نصب عينيك دائماً أبداً. وإذا عملت براً فاحفظه وإن كان قليلاً فلا تستحقره وتصور النقص لكي تلحق بالكاملين وإن لم يكن لك عمل البتة فتلفظ بصوت العشار قدام الله قائلاً: " اللهم اغفر لي فإني خاطئ "[2] واقرع صدرك براحة يدك. وإن أردت الرحمة على المساكين والصلاة لأجلهم والدعاء لهم والتوجع لحالهم فلا تدع يوماً يمضي عنك إلا أن ينقص معه ذنوبه أي تقدم توبة يومية. وكن عند نفسك كل يوم كمن يبتدئ الآن في جهاده وتناسى ما

---

(١) لو ١٢: ٢٠.

(٢) لو ١٨: ١٣.

مضى لتبدأ بنشاط واغصب نفسك على عمل الخير فإن الخير كله تغصب ولا تطلب شيئاً في غير وقته إن أردت أن تتلذذ فيما يتولد من الأعمال الصالحة فلا تطلب راحة البدن في زمان الجهاد وهكذا لا تخيب من الأمل واطلب كل شيء بمثله الرحمة بالرحمة والرضا بالرضا وقبول العذر بمثله وإجابة السؤال بإغاثة السائل ولا تطمع في أن يكال لك بخلاف ما كلت ولا تترجى أن تنال من غير ما قدمت ولهذا قال الكتاب الإلهي: " إن الرحمة تحل على الرحماء "[1] وقال: " من زرع شيئاً إياه يحصد "[2] وقال أيضاً: " ها الإنسان وعمله "[3]. واعلم أن الرجاء لا يتعلق بترك ما نهيت عنه فقط بل وتعمل ما أُمرت به ويكفيك في هذا الأمر المثل الذي لذلك العبد الكسلان الذي لم يأتِ من الخطأ إلا ترك عمل الخير فقط وقد عوقب عقاب المجرمين[4]. فلهذا يا ابني استعد دائماً لفعل الخير وجد في طلبك ولا ترذل شيئاً من غير تجربة ولا تمدح ما لم تنتفع به مراراً لأن النادر لا حكم له. ولا تكتفي بتجربة نفسك لنفسك فرأي الواحد غير صائب غالباً لا سيما

---

(١) يع ٢: ١٣.

(٢) ٢كو ٩: ٦.

(٣) رؤ ٢٢: ١٢.

(٤) مت ٢٥: ١٤ – ٣٠.

وخداع النفس مشهور. لا تشغل خاطرك فيما لم يأتِ زمانه فربما لم تصل إليه وتعدم الحاضر إتمامه. أحسن إلى كل أحد بالقدر اللائق بك النافع به من جهتك. لا تثق بنفسك ولا تيأس منها إلى الممات فإن الخروج من الرذيلة والعودة إليها كلاهما ممكن. قرر عملك بقدر قوتك فإن الزائد عن القدر مُنقص للعمل واعلم أن الفضيلة قد يمكن أن تتحول فتصير رذيلة بطرق شتى فلا تغتر بحسن الحال فاحذر التفريط والإفراط بالأكثر. لا تُعجب بعملك فيختلسه العدو منك. إن أردت براً بغير عمل فاعترف بالنقص وذلل نفسك قدام الله واسأل العفو منه وإن كان لك عمل فاحفظه من شكر الفريسي. تكتم في القيام بعمل الخير بحسب الطاقة فإن من تظاهر ببره فقد تطرق إلى إفساده. لا تمتنع من خير تعمله مع القدرة عليه وإلا سُلِبت العطية. لا تطوب الآراء الفردية ولو كنت قد جربتها وانتفعت بها، بل التطويب يليق بما هو نافع للأكثرين. لا تجمع بين ترك الفضيلة وذمها. وحيثما جلست احسب نفسك مسكيناً وغريباً فتستريح عند الإطراح بك أي عندما يهينك أحد وافعل ذلك لوجه الله تعالى ليوجه العناية بك وإن تأخرت عناية الله في أمر من الأمور فلا تقنط فربما كان تأخرها عنك عناية بك وضع في اعتبارك القديس بولس الرسول الذي كان

المحرك له شيطان لأن عادته جرت أن يستر بما يعلم أنه جيد المبدأ رديء العاقبة لعلمه بأن الأبرار كلهم لا يتساهلون في قبول المبادئ الرديئة ولهذا يقدم أمام النفس مقدمات حسنة في الظاهر من ضرورتها أن تنتج رديئاً في العواقب ولعلم الرسول يتفنن قتاله أمرنا أن نقاتله بسلاح اليمين والشمال [1]. ولا يضرنا الشيطان إلا بما يأتيه علينا من الجهة اليمينية لأن الرذيلة إذا استترت بلباس الفضيلة جذبت بها النفس وخدعتها بالأكثر ولهذا قال الرسول بولس الكارز العظيم: " كونوا حذرين لئلا يخدعكم الشيطان كما خدعت الحية حواء بمكرها " [2].

يا بني احذر أن تخطئ وإن أخطأت فاحذر أن تعاود الخطية وإن عاودت الخطية فاحذر أن ينقطع رجاؤك لأنني قد علمت أن قطع الرجاء داء لا شفاء له. وعلمت أيضاً أن كل الخطايا تُغفر مع وجود التوبة. ولكن كل خطية لها توبة تخصها، وعقاب المعاودة إلى الخطأ يكون مضاعفاً. ليس يكفي الاستغفار في الذنب عدم المعاودة إليه لأن شروط التوبة كثيرة: أولها الإقلاع عن الذنب ثم الندم عليه ثم الاستغفار بسببه ثم مقابلته بفعل الجميل أي مقابلة الضد بالضد لأن داود النبي

---

(١) ٢كو ٦: ٧.

(٢) ٢كو ١١: ٣.

لم يقل فقط " ابعد عن الشر " بل قال: " ابعد عن الشر وافعل الخير " [1] وقال معلمنا بولس الرسول: " من كان يسرق فيما مضى فلا يعد يسرق الآن بل يكد بيديه ويعطي المساكين " [2] وقال أيضاً القديس يوحنا المعمدان للمقلعين (التائبين) عن الخطايا : : اعملوا أثماراً تليق بالتوبة " [3]. فاعلم من مجموع هذه الأقوال أن ترك الخطايا أي أن عدم الرجوع وعدم المعاودة إلى الخطية ليست كافية في الاستغفار عن الذنب، فإذا كان الذي لم يعمل خطأ وإنما تكاسل عن عمل الخير فقط عوقب عقاب الأشرار فكم بالحري عقاب من يجمع بين ارتكاب الذنوب وترك الأعمال الصالحة التي هي شرط كاف في الاستغفار الذي يكون مقروناً بالإقلاع والندم والتضرع. فإن لم تقدر على فعل الخير فاستحقر ذاتك وتذلل بقلبك واعترف بضعفك فإن العشار حظى بالعفو على هذا السبيل ةإن أمكنك يمكن أن تضيف إلى انكسار القلب عملاً آخر من الخير المقبول عند الله. اقرن أيضاً انكسار القلب بالنية الصالحة متأملاً في ذلك فلسي الأرملة فإنها مع قلة الموجود لديها تقربت إلى الله بأحقر العطايا فحسب عملها كاملاً

---

(١) مز ٣٧: ٢٧.

(٢) أف ٤: ٢٨.

(٣) مت ٣: ٨.

انتفاعه في البلية أكثر من دفعها عنه. اقتن الهذيذ مع الله وخاطبه بالقلب واسجد له بالروح واعمل عمل الملائكة والناس الأبرار جميعاً: تارة ترتل وتارة تستغفر وتارة تستدعي العون وإن غلب عليك الملل ولم تتمكن من امتداد الخاطر نحو الأفضل فاستعمل تلاوة اللسان وقراءة الكتب المعروفة بالبراديسوس أي المقصود كتاب بستان الرهبان مع سير الآباء المجاهدين وإن لم يفدك ذلك فاستعن بمحاورة إنسان عمَّال أي إنسان مجاهد في الروحيات وإذ وجدته فاغتنمه وخذ منه الكفاية وعد إلى مكانك ومستقرك لئلا تشغله بالحديث عن كمال عمله. واستدع الخاطر دائماً بالتردد في الابتهال دائماً وإن تعذر عليك عمل الباطن فلا تكف عن الظاهر فاغصب نفسك دائماً واعلم أنك إن لم تشغل النفس فيما لله يشغلها الشيطان فيما له لأن النفس بالطبع عمالة متحركة على الدوام وحركتها طبيعية تشبه حركة الأفلاك المتحركة بلا انقطاع. وقد شبهت أيضاً حركة النفس بحركة الطاحونة فإن لم تسبق وتلقي فيها قمحاً وإلا ألقى فيها إبليس زواناً. وإذا خالفك الكل أو ذمك الكل فيما جربته مراراً ووجدته نافعاً بك فلا تهمل ذلك ولا تعدل عنه البتة فليس جُناح على مَنْ تمذهب في العبادة بمذهب خاص في الله. احذر الناس وخداع نفسك بالأكثر.

اندم على الذنب وعلى تأخر الإقلاع عنه أكثر. ابغض الرذيلة والسبب لها أكثر. احفظ نفسك من أسباب الرذيلة وإن مارست أسباب الخطأ وسُلِمت منها فليس ذلك لطبيعة الإنسان بل للعناية الإلهية. لا تطلب أن تجرب الأشياء كلها بنفسك ولا تكثر مما ليس هو مطلوب لذاته ولا تقصر عما يجب فاتخذ الطريق الوسطى في الأمور. وإن سألت شيئاً ولم تنله فلا تحزن فربما كان عدمه أنفع من وجوده. تجنب المتهاونين في خلاص نفوسهم وتجنب مرتكبي الذنوب أكثر ولا سيما المصممون منهم. لا تعظ مَنْ لم توبخه نيته على زلله ولا تعاشر من تعود إحالة الذنب على الغير. لا توبخ عدواً ولا تصاحب مهذاراً. لا تنتقم بفكرك من أحد ولا تلفظ بما يترتب به الذنب عليك. اصطحب الصالح والباكي على خطاياه. أكثر مما امتحنته مراراً فوجدته نافعاً بك وتمسك به بالأكثر. وإن أردت أن لا تكن حزيناً فاعتبر نفسك كأنك لم تكن موجوداً. لا تروم أن تجرب الأشياء كلها بنفسك فليس في العمر كفاية لتجربة الأمور كلها. إن أردت أن تصطحب بمن لا ذنب له ولا نقص فيه فلا تجده. فإذ كان الوثوق بالدنيا خداعاً فالوثوق بما هو أسرع زوالاً منها يكون أكثر خداعاً. خذ الخير من حيث وجد واتعظ بمن تلفظ بخير. لا تسترسل مع الفكر بلا تمييز لئلا يكون

لكمال همتها وصلاح نيتها. كن مسكيناً بالروح غنياً بالرجاء الصالح. حسن النية تُصير القليل كثيراً فلا تستحقر القليل مع جودة النية ولا تحسب الكثير كثيراً إلا إذا شملته النية الصالحة المقترنة بتواضع النفس. لا تشكر أمراً إلا بعد التجربة ولا تعمل عملاً إلا بعد المعرفة. إن لم تكن لك تجربة بالأمور فاستعن بمن يكون له ذلك. وكل ما جربته ووجدته نافعاً لك فقد صار من قبيل الواجب عليك. وإن كنت منعزلاً لم تجد أحداً فاتكل على من لم ينسَ صنعة يديه وثق ببركة من لم يعوزه شيئاً في خلق كل الأشياء من العدم. استشر فيما لم تجربه مراراً ولا تغالط نفسك فيما صح عندك وعرفت جيده من رديئه نتيجة الامتحان الكثير له. لا تأخذ رأي من لم يشاركك في العمل وما وقع لك على سبيل النادر من نفع أو ضرر فلا تتخذه قانوناً. فالنادر لا حكم له. الوقائع الغريبة اكتمها وما وجدته نافعاً بك دون غيرك فاجعله فرضاً عليك دون غيرك. وما خالفت فيه الكل اكتمه عن الكل ولو كان نفعه حقيقياً بك. ولا تَبُح بما أودعك الله وخصَّك به فحكمته في خلقه خفية متفننة. لا تعظ من يستحقرك ولا تُعلم متكبراً ولا تحتقر أحداً من الناس فلله في كل مخلوق وديعة، وحكمته غير مسلوبة عن كل مخلوق فربما توجد ذخائر الحكمة في

المجهول من الناس كما توجد ذخائر الكنوز في الأماكن المستجهلة عند الناس. إن تمسكت بشيء من الدنيا فاعتقد مع ذلك زواله. كل ما أنت مزمع أن تتركه اضطراراً ابدأ بالزهد فيه اختياراً، وإن كان ضرورياً لعيشك فتناول مقدار الحاجة منه ولا تترك منه عندك كثيراً ثقة بطول العمر. فإن المُدَّخر عندما لا تحتاج إليه فإنك تتدخره لغيرك أما كل شيء يمكنك أن تستصحبه معك إلى دار الإقامة أي الأبدية فأكثر منه فإن الأنواع التي تُدَّخر لدار الآخرة لا تفسد. لا تسوف بالخير فإن التسويف يستغرق الأوقات كلها. إذا خطرت على بالك فكرة صالحة فلا تؤخر العمل بها فربما كانت هي آخر ما يلقى إليك من الفكر الصالح وكأن نهاية العمر مُحدق بها. لا تطمع أن تجني الثمار من غير غرس تغرسه أنت وتسقيه بيديك. اعلم أن الله يعطيك من الأنواع التي قدمتها أمامك ويجازيك بقدر ما عملت. الله قادر أن يعطيك كل ما تطلبه لكن عدله يمنعه أن يمنحك ما لا تستحقه. الله رحيم غفور لكن ليس على الذين يستوجبون جهنم وإنما يحصد الإنسان ما يزرع. لو أراد الله أن يرحم الإنسان مجاناً ما كان خلقه مختاراً طالباً الأفضل، ومتمكناً من ترك ما نهاه عنه وتوَّعد بسببه وقادراً على تجنب الرذائل والإقلاع عن المعاصي وما جعله أيضاً

قادراً على فعل الخير والمواظبة عليه فلا تنس حقوق الله واعترف له بما له عليك سواء كان في نظرك نعمة أو نقمة فإن كانت نقمة فاعتبرها لك بمنزلة الأدب. يجب عليك أن تعرف الله بكل ما يجب أن يُعرَف به حتى تشكره عند نزول النعمة وتستغفره عند نزول النقمة بسبب الذنوب لأن داود النبي يقول: " إن الله سبحانه أحب الرحمة والعدل وإن النار تتقد من غضبه " وكان ذلك ليخاف الإنسان الله ويبتعد عن المعاصي ويسعى متوغلاً في رضى الله بفعل الخير. إن أحببت أن تكون عابداً لله فأحب التعب ولا تفر من الجهاد ولا تخرج من ميدان العبادة ولا تهرب من الحروب الروحانية ولو جرحت دفوعاً بل لازم الجهاد وقاوم العدو الشيطان وامنع الحركات الطبيعية التي تجذب العقل نحو الرذيلة ولا تعطي راحة لصدغيك ولا نعاساً لعينيك حتى تجد موضعاً للرب ومسكناً لإله يعقوب. احذر أن تقع في أحد بلسانك ولا تتكبر عليه بقلبك لئلا تتخلى العناية عنك فتقع في المحذور منه فإن ليس سقطة إلا ويتقدمها إما تهاون أو تكبر فلهذا الزم التواضع الكثير ليهرب العدو منك وتحيط بك عناية الله. اتخذ الصوم عوناً والصلاة حصناً والقراءة ينبوعاً وتوغل في الهذيذ بالله سبحانه وارتفع شوقاً إليه وقل مع المرتل داود: " من يعطيني جناحين مثل حمامة فأطير وأستريح

مع الله "[1]. يا بني إذا اختلط عليك أمر فإذا لم تجد مَنْ له بصيرة ولا من له تجربة بهذا الأمر فيجب عليك الصلاة الكثيرة لتمتحن صحته من سقمه. ولا تبغض الأشرار بل اكره أعمالهم. وصلِّ لأجل أعدائك لتنتفع أنت وهم. وإذا عدمت الرأي الصائب من نفسك ولم تجد مَنْ تُعضد برأيه فاعمل متكلاً على من بيده سر الطبيعة. اعلم أيضاً أن الشيطان كامن ككمون النار في حَجَر الزناد فإذا وجد سبيلاً ظهر فلهذا لا ينبغي أن تثق بسكون الأوجاع ولو خفى أثرها عنك وقتاً ما بل كن حذراً على الدوام ولا سيما قد جرت العادة للمقاتل البطل أن يتوقف عن حروبه وقتاً ما ليخدع بذلك من يقاتله. اغتنم العمر فليس لك زمان تبقى فيه غير ما اقتضاه تركيبك الذي هو عن قليل ينحل رباطه وتبقى خائباً من المساعد الطبيعي والعون الإلهي. لا تسوف زمان الصبا متكلاً على زمان الشيخوخة فإن الشيخ يعجز عن العمل المطلوب بسبب ضعفه ولا سيما بسبب ما وقع فيه من التسويف في زمان الشبيبة. فينبغي أن تقدم لله أفضل ما عندك وتخدمه بكل قوتك وتقدم له من أوائل ثمرك وبكورك وهي أيام الشبيبة.

---

(١) مز ٥٥: ٦.

قال التلميذ: يا أبي نفعتني بوعظك وتعليمك ولم تعوزني شيئاً وقد زرعت خيراً فاسقه بطلباتك ليتم ويدوم ثماره عضدني يا أبي بالصلاة والدعاء إلى الله لأعمل بما قلت لي فأنجح عند الله وأقتات بثمرات الأعمال.

قال المعلم: يا بني دعائي لك واجب علىَّ ولو لم تسألني إياه لكن لا ينبغي أن تتكل على الدعاء فيسترخي عزمك بل جِد واجتهد في تكملة كل ما سمعت مني ولا تستصغر صغيرة منه وتتهاون بها. لا تستعظم كبيرة منه فتهرب منها فإن كل ما قلته ممكن لك ونافع بك والله له المجد مسئول في أن يؤيدك ويقويك ويصون عملك من المفسد آمين.

والسبح لله دائماً أبدياً آمين

القصة الثانية

القديس ببنوده المتردي

(صاحب الرداء)

بسم الاله الواحد ذات وكلمة وحياة

نبتدي بمعونته وحسن توفيقه
بكتب خبر بنودة المتردي
ترجمة الاب التدبير الفاضل
حنين المصنف رزقنا الله
بركة صلاته امين

قال كان انسان يسمى بنودة المتردي
وكان غني بالمال ممتلي من الادب والحكمه
نصيحا بليغا. فاشتهى هذا ان يطالع الانجيل
فطالعه مرارا بتعقل وروية. فوجده
مقتصرا على الايمان. حاثا على فعل الخير
فقال لذاته الايمان بغير عمل يبطل فالزم
نفسه الرحمة على الفقرا والمساكين. بالشوق
الى رحمة نفسه. ثم وزع بقية ماله على
المعوزين والضعفا والمنقطعين. وتجرد

باسم الله الواحد ذات وكلمة وحياة
له المجد الدائم إلى الأبد آمين

مقدمة الكاتب

﴿ نبتدئ بمعونته وحسن توفيقه بكتابة خبر ببنوده المتردي مما ترجمه الأب القديس بطرس السدمنتي رزقنا الله ببركة صلواته آمين. ﴾

" طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ " (مت ٥ : ٧)

كان إنسان يسمى " ببنوده المتردي " وكان غنياً بالمال ممتلئاً من الأدب والحكمة فصيحاً بليغاً. اشتهر هذا الإنسان أن يطالع الإنجيل، فطالعه مراراً بتعقل وروية فوجده يدفع إلى الإيمان بالله حاثاً على فعل الخير. فقال لذاته: الإيمان بغير عمل بطال. فألزم نفسه الرحمة على الفقراء والمساكين مشتاقاً إلى رحمة نفسه. ثم وزع بقية ماله على المعوزين والضعفاء والمنعطفين وتجرد من العالم وانقطع عنه لأجل الله وذهب إلى إحدى البراري وترهب وجَدَ في العبادة والنسك. فطالبته نفسه برحمة المساكين كالأول فلم يجد عنده شيئاً يجود به غير ثياب

الرهبنة التي عليه. فقال لنفسه: هذه هي ثياب الرهبنة التي بقيت علىَّ ولابد منها للراهب فكيف لي أن أدفعها؟!

أجابته نفسه قائلة: إن كل شيء إنما يقتنى لراحة النفس وإزالة تعب الخاطر بما هو ضروري لراحة غيرك وإذا كان ما هو ضروري لراحة غيرك ومنفعته متعباً لك أنت فأعطه لغيرك واسترح أنت وذاك جميعاً. وللوقت نزع عنه ثياب الرهبنة وتصدق بها وأبقى له منها رداءً واحداً يلتف به وعادت النفس أيضاً تطالبه بالرحمة. فبدأ يبيع كتبه ويتصدق بثمنها ويخاطب ذاته قائلاً: يا نفس إنما الكتب جُعلت للإنسان ولم يُجعل الإنسان لأجلها. وكل ما جُعل لأجل شيء فيجب أن يبذل في صالح ذلك الشيء وغاية الكتب أن ينتفع بها الإنسان ويعمل بما فيها وها أنا قد قرأتها وفهمتها فبقىَّ العمل بها ولا عمل أفضل من بذلها في منفعة المساكين ثم قام القديس ببيع كل كتبه متصدقاً بها على المساكين وكان قد أبقى منها إنجيلاً فقط يتعزى به.

" مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ "
(لو ١٧: ١٠)

فلما اطلع الرهبان على حاله لاموه على ذلك لأنهم لم يتطلعوا على باطنه. فقال لهم: يا إخوتي إنني عبد بطال، عقلي ناقص وعملي أنقص

فلهذا انتقل من حال إلى حال آخر غيره ولكن أرجو أن يسعني حلمكم ومحبتكم فالخطأ لمثلي والعفو لمثلكم. تأنوا علىَّ لعلي أتيقظ فإنكم تعلمون أن الفضيلة لا يحصل عليها الإنسان دفعة واحدة بل بالتدريج يمكنه الحصول عليها. وها أنا قد جعلت وفعلت ما كان وأنا أرجو بصلواتكم أن أكون على أحسن ما تأملون. وأثناء حديثه هذا تأمله أحد الرهبان ثم قال لأصحابه دعوا هذا الإنسان من لومكم فليس يجدي اللوم نفعاً لأنه طالب التقدم والنمو في الفضيلة وكلامه يدل على ذلك فأمسكوا الكلام عنه ولما زادت فضيلته وأُعلنت قال لذاته: كل عمل يعمله الإنسان ولا يحفظه من الناس يخسره وإنما يُحفظ العمل بالكتمان والاستتار عليه ولهذا قال الله لآدم: " اعمل واحفظ " [1] ولم يقل له احفظ واعمل وربنا يسوع المسيح كان ينهي بأن لا يذاع بعمله (عمل المعجزات) ولا أحد يخبر بها وهذا الأمر تعليماً لنا. أما طبع الإنسان مائلاً إلى استحسان عمله من ذات نفسه وإذا شُكِرَ من غيره فإنه يُعجب بالأكثر ومعلوم أن من استحسن عمله قلَّت مخافته ومراقبته وبهذا يسرق الشيطان الإنسان ويسلبه عمله. وإذا

---

(١) تك ٢ : ١٥.

كان عمل الفضيلة ضروريا بالأحرى كتمانه يكون ضرورياً. ولكي يحقق هذه المعاني الروحية هرب القديس ببنوده من البرية.

" اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً قَبِلَنَا "

(رو ١٥ : ٧)

جاء القديس ببنوده إلى الإسكندرية ملتحفاً بالرداء الذي أبقاه فقط. وكان يطلب إلى الله أن يرشده إلى مكان يحفظ عمله فيه. فخطر بباله أن يمضي ويجلس مع المساكين على الطريق خارجاً. فلما صار إليهم استغربوه وانتهروه ليمضي عنهم فقال لهم بكل تواضع: يا إخوتي اقبلوني إليكم فحالي أنا كحالكم لماذا تأنفون مني؟!

فأجابوه: إنما نأنف من مشاركتك لنا في العطاء. فقال لهم: إن كان الله هو المعطي فهو يزيد ويبارك في العطاء لعلمه إني زدت عليكم فطولوا روحكم علىَّ حتى تبصروا فعل الله وكرمه. عند ذلك قبلوه وأحسنوا الظن فيه. وفعلاً زاد على ما كان يحصلون عليه بوفرة وكثرة فأحبوه واستبشروا به كثيراً. وأما هو فشكر الله الذي أهله إلى هذه الرتبة. وصار يتناول الصدقة بيده ويقول أمجدك يا صانع الخيرات لأنك أهلتني لفضيلتين أولاً أكون مصدقاً وثانياً أكون متصدقاً وتجعل لي بكل واحدة من هاتين نصيباً في الوقوف عن

يمينك. ولبث القديس ببنوده متلذذاً دائماً بما يتناوله وكان يقتات بيسير مما يخصه ويعطي البقية لمن يراه عائزاً ومحتاجاً وكان يتوجع لأجلهم ويدعو لهم ويعزي صغيري الأنفس منهم ويقول لهم: يا إخوة إن كان نصيبنا في هذه الدنيا الفقر والمسكنة فلا نضيف إلى ذلك فقر النفس بل نثابر على أن نكون أغنياء بالله بالصبر الجميل والشكر الجزيل ونتشبه بأيوب الصديق الذي كان في بلاياه عند الله أفضل مما كان عليه من البر في غناه وسعته. فالسعيد مَنْ يكون شاكراً في كل أحواله وحكيماً في أفعاله كالوكيل الذي لما عَلِمَ أن سيده ينزع عنه الوكالة وضع حلاً لنفسه بما يعمله بجودة فكرته ومدحه الرب على ذلك. وكان القديس ببنوده إذا فرغ من الصلاة قرأ في الإنجيل بخشوع وكان لا يتمالك عند قراءة الإنجيل لانهمار دموعه الغزيرة.

" أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟ "
(مز ١٣٩ : ٧)

وفي يوم من الأيام مر به رجل موسر غني فوجده يبكي فتوجع لبكائه وظن ذلك من جوع أو حاجة أو لوجع به فسأله ما الذي يبكيك أيها الرجل؟ فأجابه القديس ببنوده: ليت البكاء يكفي

والدواء يشفي ولكني أبكي ثم أبكي ولا أجد بُداً من البكاء لأن دائي منكى [1].

فقال له الرجل: أطلعني على حالك لعلي أجد لدائك طبيباً. فأجاب القديس: الطبيب أنكاني (آلمني) بدوائه. فقال الرجل: ما شأن الطبيب الإضرار بالعليل؟ فأجاب القديس: الدواء ما يبلغ فائدة إلا بعد انكاية. فقال الرجل: كلما أردت منك استفهاماً زدتني استبهاماً والتلويح إن كان جميلاً إلا أنه في كل الأوقات لا يليق فصرح لي الأمر.

فقال القديس: يا سيدي لست أنا جائعاً ولا موجعاً بل أنا عبد هارب من سيدي لقد عصيت الخلائق والخالق وكان سيدي قد اشتراني بثمن غالٍ وكثير وألبسني حلة ثمينة وأدخلني داره وجعلني في مكانة أولاده وخوّلني سائر أحواله وأجلسني على مائدته وأطلعني على أسراره وأمرني ونهاني ووعدني بالحرية إن حفظت الوصية فجذبني أحد العبيد إلى المعصية ورغّبني في المخالفة بعطية كاذبة فلما اطلع السيد على المكيدة طردني من الدار السعيدة والعيشة الرغدة.

---

(١) منكي: مقشور بمعنى جرحي دائماً يُقشَّر قبل أن يبرأ لذلك الألم ما زال موجوداً.

فسأل الرجل الغني: وماذا عن العودة؟!

فأجاب القديس: العودة على شروط عديدة لا تفي قدرتي لحملها.

قال الرجل: إن كان هو مالاً فأنا أقوم به عنك.

فقال القديس: الشرط أن لا يقوم به الغير ولو كان وفائه من الغير يفيدني لما جلست هنا على مثل هذا الحال.

قال الرجل: فإذا لم يكن لك منقذ فكيف تؤمل العودة؟

فأجاب القديس: لهذا السبب أنا أبكي وأشتكي لعل يأتي إليَّ ما يكفي ويشفي.

فقال الرجل: ما أرى أن البكاء يجدي نفعاً.

قال القديس: لكن هو شرط كافٍ للعبد مع رحمة سيده.

فقال له الرجل: إن كان سيدك رحيماً ولا يطالبك فاهرب فتخلص.

أجاب القديس: حيثما هربت وجدته وأينما اتجهت صدفته فليس لي أن أهرب منه إلا إليه ولا لي معول (اتكال وإعالة) إلا عليه.

فقال الرجل: إن كان هذا هو حالك معه فليس لك من الخلق نصيراً ولا من الناس شفيعاً فجُد (أوجد حلاً) لنفسك بنفسك وحقاً لقد ألمني شأنك وهمني أمرك وأنت أعلم مني كيف ترضي سيدك

ورأسي لا تطلع غيري على ما أطلعتني عليه فليست هناك فائدة وأسألك أن تدعو لي صالح الدعوات.

فقال القديس: الله تعالى يوفيك كل ما يعوزك فيه مساعدة المخلوق دون الخالق ويجعل التوفيق لك رفيقاً موافقاً ولتكن العاجلة منك صالحة والآجلة أصلح. ومع دعائي لك اعلم أنه دين عليك فليكن لي منك مثل ذلك.

فسأل الرجل: والدعاء أيضاً دين على الإنسان؟

أجاب القديس: نعم لأنه عمل صالح نهديه فيجب عليك تعويضه وكذلك إحسانكم إلينا وصدقتكم علينا ديناً لازماً نوفيه بالدعاء لكم والطلبة عنكم.

" أَعْطُوا مَا عِنْدَكُمْ صَدَقَةً فَهُوَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ نَقِيّاً لَكُمْ "

(لو ١١: ٤١)

سأل الرجل الغني القديس قائلاً: هل يمكن دعاء المساكين يغفر الذنوب؟

أجاب القديس: نعم هو يكون وسيطاً في تحريك نعمة الله لتلك النفس لينبهها ويوقظها مع ميلان تلك النفس إلى ذلك فيكون نفعاً لها.

سأل الرجل: هل لا تفيد صلاة الإنسان بمفرده خلواً من دعاء المساكين؟

أجاب القديس: طبعاً لا لكن رحمة المساكين أعظم الشروط كقول السيد المسيح: أعطوا رحمة وكل شيء يتطهر لكم [1].

سأل الرجل: إن كان الأمر هكذا فمن لا شيء له ليتصدق به ماذا يفعل؟!

أجاب القديس: يرحم بقلبه ويتوجع بنفسه والرب عالم بسره وربما بعض المساكين ينتفعون بالكلمة الطيبة والتسلية الروحية والتعزية أكثر من العطاء.

فسأل الرجل: هل لمن لا يُلزم نفسه بالدعاء والطلبة لمن يعطيه يجب أن لا يأخذ صدقة؟!

فأجاب القديس قائلاً: أخذ الصدقة والدعاء عوضاً عنها فإنه بالصدقة نفَّسَ كربه فيدعو لصاحبها من خالص قلبه.

سأل الرجل: إذا أنا علمت من إنسان أنه لا يدعو لي فهل يجب علىَّ أن أتصدق عليه؟

---

(١) لو ١١: ٤١.

فأجاب القديس: نعمة بالأولى لأن الله هو المجازي لك إن دعا لك أو لم يدعُ وربما هذا أزيد براً لك لأن الله يكافئ من يعلم أنه لم يستوفِ أجره فيكون رجاؤك على الله محضاً لأن صدقتك على من لا ترجو دعاه تكون عمل محض لوجه المسيح الآمر بالمعروف والمجازي عنه ويكفيك في مثل هذا الأمر ما فعلته الأرملة [1] في فعلها الخير مع من لا ترجو دعاه بل فعلت الخير لوجه الله محض. ففعل الخير مع مَنْ لا يُطلب منه العوض واجب أفضل وقد قال معلمنا بولس الرسول: " اصنعوا الخير مع كل أحد وخصوصاً أهل الإيمان " [2] وهنا يقصد نصنع الخير مع الكافر والمؤمن لأنه أردف قائلاً خصوصاً أهل الإيمان.

سأل الرجل: فكم مقدار ما يتصدق به الإنسان؟

أجاب القديس: الإنسان الكامل يتصدق بكل ما يملك كقول السيد المسيح: " بع كل مالك وأعطه للفقراء والمساكين " [3] أما المتوسط فهو يتصدق بما يفضل عن حاجته ولم ينضر لعدمه وأما الذي

---

(١) أرملة صرفة بيت صيدا فعلت الخير مع إيليا النبي (راجع ١مل ١٧ : ٨ – ١٦).

(٢) غل ٦: ١٠.

(٣) مت ١٩: ٢١.

هو أقل درجة فهو الذي تسمح به نيته وهو طيب القلب لا يندم على عطائه ولا يتبرم لأن الله يسر بالمعطي المسرور الفرح بعطيته.

فقال الرجل الغني للقديس المسكين: لقد أحسنت إليَّ بهذه الكلمات النافعة.

فقال القديس: أحسن من هذا العمل بالأحسن واستغنم فرص الزمان ما دام لكم إمكان ولهذا قال معلمنا الرسول بولس: " اعملوا الخير ولا تملوا "[1].

فسأل الرجل: بماذا يتسهل عليَّ فعل الصدقة ونفسي تعتقد طول العمر والحاجة إلى ما يُدخر؟!

أجاب القديس: كما تعتقد النفس أن العمر سيطول ينبغي لها أيضاً أن تعتقد أنه سيقصر ولابد أن يعلم كل أحد منا حقيقة ذلك ولهذا قال السيد المسيح: " تيقظوا واسهروا فإنكم لا تعلمون متى يأتي سيدكم "[2]. وقال أيضاً: " إن ذلك اليوم وتلك الساعة لا يعلمها أحد "[3]. لذلك يجب أن يبقى المرء على يقظة لئلا يقع في الإهمال آملاً طول العمر.

---

(١) عب ١٣ : ١٦.

(٢) مت ٢٤ : ٣٦.

(٣) مت ٢٤ : ٣٦.

سأل الرجل: هل فعل الخير له جزاء في هذه الدنيا؟

أجاب القديس: نعم لابد من القول أن عمل الخير له جزاء في هذه الدنيا حتى يزداد صاحبه رغبة وينشط في عمل الخير بالأكثر ويجتهد في فعله ولولا المكافأة في هذه الدنيا ما داوم على فعل الخير. وكذلك أيضاً من يفعل الشر يجازى ويؤدب أيضاً حتى يتعقل ويكف عن شره. ألم تسمع قول الله في الناموس: " يا بني إسرائيل إن أطعتموني تأكلون خيرات الأرض وإذ لم تطيعوني انتقمت منكم "[1] ولا يقتصر الرب على ما منحه أو جازى به في هذه الدنيا وإنما ذلك سياسة ودلالة وعربوناً لتحقيق ما أعده في الدهر الآتي.

سأل الرجل: إذا قاتلني فكر الزنا فهل أتصدق؟

أجاب القديس: نعم لأن فكر الزنا يفسد الخير مع الموافقة لا مع المقاتلة والجهاد ضد هذا الفكر.

سأل الرجل القديس أيضاً: كيف أداوم على فعل الخير وقد تولد منه ضرر من الأشرار؟

أجاب القديس: الضرر هو أن تمنع عمل الخير الذي يجب أن تقوم به ولا تفعله لأن يجب عليك الاحتمال ومداومة عمل الخير بشهامة وقم

---

(١) إش ١: ١٩، ٢٠.

مقابل العدو الذي حسدك على فعل الخير بصرامة لأن العدو يتحيل عليك ويقوم بمهاجمتك ويقاتلك ليفسد عملك فيسوء ذلك في عينيك ويصرفك عن فعل الخير بالكلية. فإن كافحته وفهمت حيله ومكره وداومت على ما أنت فيه من فعل الخير فر ذلك العدو عنك ويقر بانتصارك وغلبتك عليه وينهزم من أمامك ويوافق ذلك رأي القائل لكل عمل خير مانع، فتفهموا وضعوا في اعتباركم النتائج المضادة لهذه الأفعال الجيدة فتعقلوا واعلموا من أين تأتي وما موجبها فتتحكموا بها في المستقبل فإذا علمتم حقائق هذه النتائج يمكن احتمالها فاحتملوا وإن كان لا يجوز احتمالها فادفع هذه الأفعال عنك فإن الكمال ليس هو مستطاع لكل أحد.

" مَنْ هُوَ بَيْنَكُمْ: أَنْ لاَ يَرْتَئِيَ فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَئِيَ "
(رو ١٢: ٣)

قال الرجل الغني: جازاك الله عني خيراً، فأنا أهمل الأضرار التي من الأشرار الناتجة عن فعل الخير معهم وأتكل اتكالاً كلياً على الله فما رأيك؟

أجاب القديس قائلاً: الاتكال الكلي لا يليق بالضعفاء في أمورهم بل يضرهم لأن الحذر والتعقل والوقاية من الأضرار نافعة

للضعفاء فلا يرتئي الإنسان فوق ما ينبغي. فلكل سلاح حامل ولكل آلة مقاتل فلا تظن بنفسك على غير ما أنت عليه لئلا تهلك وعلى أية حال من الأحوال الاتكال الكلي المحض للكاملين الذين باعوا كل شيء وتبعوا السيد وإن كان لابد من ذلك الاتكال فليحذر الإنسان أيضاً ويتعقل في اتكاله ويسعى ويجتهد ويقول ويفعل لئلا يدخل في تجربة كقول السيد المسيح: " صلوا لئلا تدخلوا في تجارب " [1] ولهذا الأمر لم يوافق السيد المسيح الشيطان في إلقاء ذاته من على جناح الهيكل مع أن له القدرة على ذلك ولم يلق ربنا ذاته ليوقف ويمنع كل بطل جريء على الدخول فيما يفوق الطاقة. فمعنى قولنا في إدراك أمر الاتكال الكلي المضر بالضعفاء يتضح في مناسبة الشيطان هذه مع السيد المسيح في قوله ارم نفسك من على جناح الهيكل فمثل هذا الأمر يفوق طاقة الإنسان وأيضاً ليس هناك ضرورة تستدعي ذلك ولا أمر الله بذلك. فاعلم أن العناية الإلهية لكل إنسان بقدر استحقاقه ويجب التوفيق في الفضائل العملية لأن ذلك يولد في النفس جودة اليقين وحسن الرجاء. ويحسن أن يكون الاتكال الكلي عند الضرورة ويجب في هذه الحالة قوة الإيمان للمتكل دون أن يداخله شك كقول

---

(١) مت ٢٦ : ٤١.

سيدنا يسوع المسيح: " الحق أقول لكم إن مَنْ قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له "[1].

فالاتكال الكلي أمر عظيم يليق بالكاملين واعلم أيضاً التماس ما لا يستطاع أو طلب ما لا ينبغي عيب ونقص لمن يبتغيه.

" إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُجَاهِدُ لاَ يُكَلَّلُ إِنْ لَمْ يُجَاهِدْ قَانُونِيّاً "

(٢تي ٢ : ٥)

سأل الرجل الغني القديس ببنوده المسكين: أسأل محبتك ضع لي قانوناً ضابطاً لأموري كلها؟

أجابه القديس: كن في تدبيرك حكيماً فإن الحكيم لا يُقْدِم على أمر خفيف أو ثقيل إلا ويتعقل فيه ويعرف عاقبته ويعمل كل شيء في أوانه وفي وقت مقبول وتكون أيضاً أفعاله وأقواله منظمة وحكيمة وبتأني وهدوء. فمن يتأنى ولا يستعجل في أموره فما يندم قط ولا ينكر أمراً ممكناً ولا يتهاون بأمر صغير ولا يحتقر شيئاً بالجملة. فمن تهاون في الصغائر وقع في الكبائر والسيد له المجد قال: " الحق

---

(١) مر ١١ : ٢٣.

أقول لكم مَنْ حل أحد هذه الوصايا الصغار فقد حل الناموس جميعه "[1]. وسليمان وبعض القديسين امتدحوا الطريق الوسطى وأسموها الطريق الملوكية فإنها معتدلة توافق ضعف البشرية. فلا تسلك الكثير الزائد الذي لا تستطع النفس على القيام به والاستمرار عليه حتى لا تتبرم وتنفر منه ولا تسلك القليل اليسير الذي يجعل النفس في التهاون والكسل فلهذا قال ههنا سليمان الحكيم: " لا تمل يميناً ولا شمالاً بل اسلك المنهاج الأوسط "[2] لم يقل معلمنا بولس الرسول لتلميذه كن حكيماً فقط بل أكد ذلك المعنى وقواه قائلاً: " كن حكيماً وربنا يعطيك الحكمة "[3] وقال أيضاً ربنا يسوع المسيح: " من سمع كلامي ويعمل به يشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر "[4]. واعلم أقوال الحكماء لا تُطرح والحكمة ممدوحة أينما كانت وحيثما تكون وقد قيل عنها: " إنها في الطريق والأسواق تنادي وتقول من كان جاهلاً فيقبل إليَّ "[5] ومثل هذا الكلام كثيراً وإذا لم يمكنك هذا أيضاً

---

(١) مت ٥: ١٩ / يع ٢: ١٠.

(٢) أم ٤: ٢٧.

(٣) ٢تي ٢: ٧.

(٤) مت ٧: ٢٦.

(٥) أم ١: ٢٠.

فلا تعمل شيئاً بغير مشورة وليكن مرشدك ومشيرك مَنْ توجد فيه الصفات المتقدمة لئلا تُعثر أنت وذلك حسب القول الإلهي: " أعمى يقود أعمى يقعان كلاهما في حفرة "[1]. فاحذر لئلا تقع عند أعمى وليس له بصيرة أو تقع عند عليل وليس يكون طبيب أو تقع عند ضال وليس مرشد. فاتخذ لنفسك معلماً ومرشداً من تشهد له أعماله وحنَّكته التجارب واعلم أنه بغير مشورة لا تستقيم الطريق وخصوصاً للمبتدئ وكما أن التدرج إلى الكمال ممكناً كذلك أيضاً الانحطاط إلى الهبوط أمكن.

فقال الرجل للقديس: لقد نفعتني وصنعت معي رحمة، فهل يمكن لك أن تصير معي إلى منزلي وتقيم عندي؟

أجاب القديس: كل شيء ممكن ولكن ليس كل شيء نافع وماذا ينفعك مسيري ومقامي عندك دون أن تعمل ما قلته لك وإذا لم يتيسر لك العمل وأنا غير مقيم عندك فلن يتيسر لك أيضاً وأنا عندك. فإن اخترت فاحفظ ما يجب عليك وهذا يكفي.

فسأل الرجل: فما تسمح لي أن أتردد عليك؟

---

(١) مت ١٥: ١٤.

فأجاب القديس: إن ترددت أقوالي على مسامعك وعملت بها فقد انتفعت.

فقال الرجل: لعل هذه النهاية من اجتماعنا هذا.

فأجابه القديس: نعم.

بكى الغني وانتحب ووقع على صدر القديس المسكين وقبَّلَ يديه ورجليه قائلاً له: أسألك بالله أن تدعو لي وتصلي لأجلي طالما أنت حياً فلقد زرعت في نفسي بعظاتك كثيراً من بذور الفضائل.

فقال له القديس: أنا الزارع والله ينمي ويربي فانهض بسلام واستعن بالله على بلوغ المرام.

فولى الغني راجعاً وقلبه متوجعاً أما القديس ببنوده المسكين ولكنه غني بالله عاد إلى قراءته في إنجيله ومتفرغاً لصلاته كعادته.

" كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ " (مت ٢٥: ٢١)

فلما كان ذات يوم نظر إلى المساكين رفقته فوجدهم عادمين القوت لم يُعطَّونَ في ذلك اليوم شيئاً فقال لأحدهم: قم يا أخي خذ هذا الإنجيل وامضِ إلى البيعة وبعه وخذ لنا بثمنه خبزاً ولا تُعرّف أحداً شيئاً وتعال فرقه لنا واكتم ذلك الأمر. ففعل هذا الرجل كل ما قيل له. ولما كان غد ذلك اليوم مر عليه رجلاً ممَنْ كان يتأمله ويمعن النظر

متأملاً جيداً فيه أثناء قراءة الإنجيل، ففي هذه المرة لم يجده يقرأ الإنجيل كالعادة فسأل القديس: أين إنجيلك الذي كنت تقرأ فيه؟

فأجاب القديس: لقد بعته.

فقال الرجل: ومَنْ أمرك بأن تبيع إنجيلك؟

فأجاب القديس: الإنجيل هو هو الذي أمرني إذ يقول لي دائماً: " بع كل مالك وأعطه للفقراء والمساكين وتعال اتبعني " [1] ولما لجَّ علىَّ بذلك بعته.

فلما سمع الواقفون كلامه تعجبوا لذلك وفهموا أنه رجل قديس عمَّال وهموا به خيراً عظيماً فلما استحسن منهم ذلك ومدحوه كثيراً فر منهم ودخل المدينة أي الإسكندرية وهناك أيضاً ظهرت رائحة المسيح فيه فصار كاهناً يخدم الرب إلهه بكل قلبه أميناً في وكالة سيده.

" مَجْداً مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبَلُ " (يو ٥: ٤١)

بدأت سمعة القديس ببنوده تكثر وتنتشر فلم يسعد بذلك وما ارتضى أن يقبل مديحاً من الناس فصنع حيلة وهرب ونزل في مركب متجه نحو الغرب ولما سار المركب ذلك اليوم جميعه تأمله القوم

---

(١) مت ١٩: ٢١.

الراكب معه فوجدوه لم يأكل شيئاً فانتظروا ثاني يوم وثالث يوم فتحققوا منه أنه لم يأكل.

فقالوا له: لم نراك تأكل شيئاً فإن كان ليس لديك قوت فكيف ومن أين تعطي الأجرة؟

أجاب القديس: يعطيكم الأجرة معطي الأجرة ضامن الجزاء من المقلِّين.

فسألوا: أليس لك شيء البتة؟

فأجابهم: ليس لي غير مال لي.

فقالوا له: وما هو الذي لك؟

فقال: ما شاهدتموه.

قالوا: فمن أين تغتذي؟

قال: من جهة المعتني بخليقته.

فسألوه بشدة: كيف تجرأت أن تركب معنا بلا أجرة؟

أجاب: ثقة في معطي الجزاء.

فقالوا له: لو أمكننا لألقيناك إلى البرّ أو البحر.

فرد قائلاً: ولهذا لقيتموني.

فقالوا: أسأت وظلمت نفسك وإيانا.

فقال: إنما أنا أحسنت الظن وبكم.

قالوا: وإلى أين تقصد؟

فقال: حيثما قصد بي مولاي.

وسألوه: وماذا تريد؟

أجاب: الإرادة له.

قالوا له: فما حملّك على البعد والغربة.

قال: الغربة.

قالوا: ما صناعتك؟

قال: مراقبة الصانع.

فسألوه: فما هو مذهبك؟

أجاب: ترك العلائق وطلب الحقائق والثقة بالحي الرازق.

فقالوا له: أتعرف الخالق؟

فقال: لهذا باينت (خالفت) الخلائق وسلكت هذه الطرائق (الطرق).

فقالوا: إننا نرى أنك حكيم.

قال: الحكيم واحد هو.

قالوا: من هو هذا الواحد؟

قال: هو الذي أحق بأن يُسمّى بالوحدانية.

قالوا: هل هذا موجود؟

فقال: وأيضاً معبود.

قالوا: فأين هو؟

قال: (المكان) من صنعته.

فسألوا: كيف هو؟

فأجاب: لا يسأل عنه بالكيف.

فسألوا: فكم مقداره؟

فأجاب: المقادير توزن به.

فسألوا: فلِمَ هو موجود؟

أجاب: بالضرورة موجود بذاته.

سألوا: هل له بداية؟

أجاب: وليس له نهاية.

قالوا: هذا هو في السماء أم في الأرض؟

قال: الكل في علمه.

سألوا: هل يُدرك بالحواس؟

أجاب: ولا بالعقل.

قالوا : إذن فما يُعرف البتة؟

قال: يمكن أن يُعرف من آثاره ومصنوعاته.

سألوا : ما صفاته؟

أجاب: الكمال الأقصى.

قالوا : فما الغاية من جملة صفاته؟

قال: بأن لا يوصف.

فسألوا : فهل هو بعيد؟

أجاب: فلو كان بعيداً لما سرنا.

فسألوا : هل له عناية بنا؟

قال: وأيضاً بغيرنا.

قالوا : هل هو متطلع على ما نقول؟

قال: وأيضاً على ما في الصدور.

سألوا : هل يجيب على من يسأله؟

فأجاب: وينبه على ما طلبه.

سألوا : هل يُحسن لمن يحبه؟

أجاب: في الدارين (أي الأرض والسماء).

قالوا : هل يغفر الذنوب؟

أجاب: نعم وينقي القلوب.

فقالوا: هل يقبلنا؟

قال: نعم ويرضى علينا ويحسن إلينا.

قالوا: فما الذي يجب أن نفعله له الآن؟

أجاب القديس: الإيمان والاعتماد (المعمودية) وتناول القربان للغفران الالتزام بفعل البر والإحسان حسب الإمكان.

فقالوا: حَسْبُكَ حَسْبُكَ إن كان يمكنك.

قال: كل خير مستطاع للمؤمن، فإن آمنتم بحقيقة قلوبكم بما سمعته آذانكم كنت أنا لكم وسيطاً عند الله بماء المعمودية.

فقالوا: لقد آمنا وقبلنا ما أشرت به علينا.

" هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ "

(٢كو ٦: ٢)

وفي ذلك الوقت رسا المركب إلى جزيرة فنزل الركاب وأقاموا بها ثلاثة أيام كان خلالها القديس يبنوده يعظهم ويعلمهم نواميس الشريعة المسيحية وعمَّدهم وقربهم من الأسرار المقدسة وأمرهم عند وصولهم بلادهم التي بها كنائس يجب أن يكونوا تحت إرشاد الأب الأسقف وطاعته ويتشبهون بالجماعة المقدسة أي بالمؤمنين. شكروا

جميعهم الله الذي هيأهم للخلاص على يد القديس ببنوده ثم قبلوا يديه ورجليه وسألوه المسير معهم. فأجابهم قائلاً: إن الذي أراه من مسيري معكم ومقامي لديكم قد حصل. ثم بعد ذلك دعا لهم وودعهم وانفصلوا عنه ومضوا بسلام.

" إِذْ كُنْتُ حُرّاً مِنَ الْجَمِيعِ اسْتَعْبَدْتُ نَفْسِي لِلْجَمِيعِ لأَرْبَحَ الأَكْثَرِينَ " (١كو ٩: ١٩)

وكان قبل انفصال القوم ومضيهم بعيداً عنه قد استدعى أحدهم الذي كان يحسن إليه ويغدوه من زاده وقال له: اعمل بما أقوله لك الآن.

فقال الرجل: وما هو؟!

فأجاب القديس: بعْني لأحد هؤلاء البربر الذين في هذه الجزيرة وهذا جزاء إحسانك لي.

فقال الرجل: لا يكون مني هذا.

فقال القديس ببنوده: دع عنك ما لا تعلمه وافعل لي الطاعة.

فسأل الرجل: إذا أنا بعتك فما الذي أفعله بثمنك؟

أجاب القديس: تأخذ منه أنت بمقدار ما أحسنت إليَّ وما تبقى فرقه على من يقابلك من المساكين.

ففعل الرجل هذا كرهاً ومضى عنه بعد أن ودعه باكياً عليه ومتوجعاً لبيعه، أما القديس فعزاه قائلاً: لا تبكي يا ولدي كل شيء إنما هو بعنايته وكل الأشياء هي حميدة من قبل الرب.

قال الرجل: إن كانت الغاية محمودة فأعلمني بها لأمضي مسروراً.

فأجاب القديس: الغاية هي الرجوع إلى الله وكما شاهدت كذلك يكون إن شاء الله.

ففهم الرجل أن قصد القديس هو استرجاع البربر للإيمان بالله مثلما استرجعهم هم إلى الله، فطاب قلبه وتبارك من القديس ومضى عنه.

أما البربري فاستخدم القديس في رعي الجمال فكان القديس أثناء رعيه للجمال يصلي إلى الله بكل قلبه وكان يلتمس من البربري غذاءً حقيراً عشية كل نهار وينتصب للصلاة معظم ليله سائلاً الله أن يسهل له رجوع البربر إلى الإيمان على يديه. وفي أحد الأيام وإذ بأحد أولاد أكابر البربر اعتل قليلاً ومات فانتحبوا عليه كثيراً لأنه وحيد والديه. فأتى القديس حيث كان الميت فنحَّاهم عنه فلم يمنعوه عن ذلك وبسط يديه ورفع عينيه نحو السماء مبتهلاً بحرقة قائلاً: يا ربي

يسوع المسيح أنت الذي تنهدت ورفعت عينيك إلى السماء وصحت قائلاً لعازر اخرج فنهض لعازر خارجاً وسبق وقلت لابن الأرملة أيضاً قم فقام. يا ربي يسوع المسيح أقم هذا الشاب ليكون سبباً لرجوع هذا القوم لأن هذه هي مسرتك رجوع الناس كافة. ثم تقوى القديس بالإيمان وقال للشاب: لك أقول باسم سيدي يسوع المسيح قم. فقام الميت للوقت. فخرَّ أبوي ذلك الشاب على رجلي القديس أنبا ببنوده وكذلك أيضاً فعل ذلك السيد الذي اشتراه وقالوا جميعهم: أنت من الآن السيد ونحن العبيد وأنت الآمر ونحن الطائعين. فقال لهم: لست أريد منكم غير أن تؤمنوا بالله تعالى الحي الخالق الآب وابنه يسوع المسيح الذي باسمه قام هذا الشاب أمامكم والروح القدس معطي المواهب ومكمل الأعمال. فقالوا جميعاً بلسان واحد: نحن نؤمن بمن أنت تؤمن ونعبد الإله الذي أنت تعبده.

وللوقت هيأ القديس ببنوده المعمودية بفرح عظيم وعمدهم وعلمهم الشرائع ووعظهم واستدعى أسقف هذه الناحية وعرفه برجوع هذا القوم وأوصاه عليهم وابتنوا لهم كنائس وكرزها لهم الأب الأسقف وقواهم بالوعظ والتعليم وأوصاهم حفظ ما صاروا إليه ودوامهم على ذلك. أما القديس ببنوده لما علم أنه قد تعظمت مكانته وزاد مجده في

تلك الأرض صنع حيلة وخرج من تخومهم وهو مستمر على مثل هذا الحال ساعياً في خلاص أنفس الآخرين ورد الأقوام إلى معرفة الله حتى تنيح بسلام.

صلاته فلتكن معنا وبركاته تشملنا جميعاً آمين.

والسبح لله دائماً أبدياً آمين

القصة الثالثة

القديس إيسوذوروس

السكندري

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

نبتدي بمعونة الله وحسن توفيقه بشرح
خبر اثنين من المساكين وذلك
ترجمة الاب القس الفاضل بطرس
الدمشقي رحمنا الرب بصلواته

قال كان انسان في مدينة الاسكندرية
يقال له ايسيدورس ولهُ مال جزيل وله
زوجة دينة واولاد حسان. وكان هو
وزوجته ملازمان البيعة. فسمعا ذات
يوم الانجيل يقول طوبا للمساكين بالروح
فان لهم ملكوت السموات. فتداخلهم فكر
صالح. وقال احدهما لصاحبه لعل هذا
ضد ما نحن فيه من الغنى وسعة الحال
والثروة.

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

مقدمة الكاتب

﴿ نبتدئ بمعونته وحسن توفيقه بشرح خبر إيسوذوروس السكندري وذلك ترجمة الأب القس الفاضل بطرس السدمنتي يرحمنا الرب بصلاتهما آمين. ﴾

" الْكَنْـزِ الـصَّالِحِ فِـي الْقَلْـبِ يُخْـرِجُ الـصَّالِحَاتِ "

(مت ١٢: ٣٥)

كان إنسان في مدينة الإسكندرية يقال له " إيسوذوروس " وله مال جزيل وله زوجة ديّنة وأولاد حسان وكان هو وزوجته ملازمين البيعة فسمعا ذات يوم الإنجيل يقول: " طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات " [1] فاهتز قلبيهما من الداخل فتداخلهم فكر صالح وقال أحدهما لصاحبه: لعل هذا ضد ما نحن فيه من الغنى وسعة الحال والتنعم.

---

(١) مت ٥: ٣.

" أَمَّا نَحْنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِيحِ " (١كو ٢: ١٦)

قوىَّ الفكر على القديس إيسوذوروس فمضى إلى أحد العباد بظاهر (خارج) الإسكندرية وقص عليه فكره. فأجابه العابد قائلاً: لقد اختلف العلماء والآباء في شرح هذا القول فهناك رأيين: أصحاب الرأي الأول يقولون أن السيد المسيح أراد بهذا القول أن الإنسان يتجرد من الدنيا وينقطع منها إليه ولا تكن له قنية اختياراً منه كما فعل بعض القديسين طالبي الكمال فإن الشخص يتمسكن باختياره وليست الغاية من ذلك التمسكن الجسماني وحياة العوز والعدم وإنما الغاية الحقيقية التي تكمن في المسكنة الشكر والحمد والرضى والسعادة وقبول ما هو عليه بفرح. أما الرأي الثاني فصاحبه يقول بأن السيد يقصد بهذا القول بأن الإنسان يكون محباً متواضعاً سهلاً ليناً لا يعد نفسه شيئاً وإن كان غنياً موسراً وهذا الأمر فيه ينقسم الإنسان على نوعين: النوع الأول الإنسان الغني الصالح الشاكر والنوع الثاني الإنسان الفقير البائس الصابر والشاكر أيضاً ومن أمثلة النوعين لعازر المسكين كان فقيراً من المال شاكراً صابراً على مر النكال مسكيناً بالقول والفعال. وداود النبي لقد كان ملكاً ذو مال وكان مسكيناً بروحه فكان يقول عن نفسه: " أنا مسكين وبائس،

دودة وليس إنسان "[1] وأكد القول قائلاً: " إن ذبائح الله أرواح متواضعة وقلوب منسحقة الله لا يرذلها "[2] وأيضاً قول الثلاثة فتية في أتون النار: " لتكن ذبيحتنا اليوم أمامك مسكنة النفس وتذلل القلب "[3] وبهذا استدعوا معونة الله فأدركتهم وأزالت لهيب الأتون عنهم حتى صار كريح ندى حولهم وبعد ذلك أحبهم الملك وقربوا من قلبه وجعلهم وزراء في مملكته ومنحهم العطايا ورفع من منزلتهم وصاروا أعزاء حكماء وبمثل هذا التمسكن خَلُصَتسوسنة لما تنهدت وتمسكنت لله وبهذا التمسكن خَلُصَ يوسف الصديق من كيد إخوته وعبوديته وكذلك أيضاً موسى وقصته مع فرعون وبهذا التمسكن استغفر حزقيا الملك ونال الشفاء وتجديد العمر بعد أن أدركه نهاية عمره وأيضاً بالتمسكن خَلُصَ منسى الملك من جوف الثور النحاس وعاد إلى مملكته وهذا التمسكن جعل إبراهيم خليل الله، هذا التمسكن رفع بطرس إلى أعلى الدرجات وصار بيده مفاتيح ملكوت السماوات وبهذا التمسكن صار العشار أفضل من الفريسي.

قال إيسوذوروس للعابد: فما الذي تميزه عندك؟

---

(١) مز ٢٥: ١٦، مز ٢٢: ٦.

(٢) مز ٥١: ١٧.

(٣) تتمة دا ٣: ٣٩، ٤٠.

أجاب العابد: فيما قبلته نفسك.

قال إيسوذوروس: إني أرى الأول لأنه شرط الكمال وما يبلغه أحد إلا بترك المال والزهد فيه.

قال العابد: قد تقدم القول وقلت لك أن المسكنة في النوعين في الغنى والفقر كما اتفق إبراهيم وأيوب وداود ويوسف ومن تقدم ذكره.

قال إيسوذوروس: هل التجرد من القنيات مساعد للمسكنة أم مانع؟

أجاب العابد: استعداد النفس مختلف في الغنى والفقر والإضرار والنفع فاختر لنفسك ما تنطوي عليه ولا تركن إليه.

قال إيسوذوروس: نفسي تتوق إلى الأفضل من النوعين وإذا كنت ما اختبرت شيئاً من كليهما فكيف أميزه وكيف أرجحه؟ وإن كنت غير قادر على أن أمتحن النوعين لأختبرهما جيداً ففي أي زمان يكون العمل بالأصلح والأنفع؟

قال العابد: إذا اهتدى الإنسان بمرشد عالم اجتاز الامتحان وميز الطريق فابدأ الآن بالأسهل عليك والأمكن لديك وقابل الشيء بمثله فإن أقسام الخير ورُتب الأعمال الصالحة تُعَلم من بعضها بعض وتوصل المستفيق إلى الغرض الحقيقي وإذا أَجدت العمل وأخلصت النية كان

الله مرشداً لك وإن اختلط عليك أمر فاستشير أرباب التجربة العملية وأصحاب الأفكار العقلية (الموزونة) فإن الله يرشد الناس من بعضهم بعض ويستعمل الوسائط في نفع الناس مع قدرته الكافية لكي حكمته تُرى بهذه. وليس يخطئ إلا من تفرد برأي نفسه وقُنِع به ومن استشار على نفسه استنار وصفي عقله من الأكدار.

قال إيسوذوروس: فالواجب أن يؤخذ الخير من حيث وجد وأنت الأولى بهدايتي لأن الله سهل لي وأرسلني إليك وعول بي عليك لأنك قد خبرت بأحوالي وأنت الأولى بإجابة سؤالي.

قال العابد: إني أرى أنك قادر أن تجمع بين المسكنة بالروح والزهد في العالم لأن لك زوجة وأولاد فابدأ أولاً بالمسكنة بالروح وتوجع للمساكين وشاركهم في حالهم واحتمالهم بقولك وفعلك فينظر الله إلى صفاء نيتك وحسن طويتك وإذ أنت طالب الأفضل ومائل إليه فهو يعينك عليه إما بإنسان أو بإلهام.

استوعب إيسوذوروس جميع كلام العابد وتبارك منه وأخذ دعاه وفارقه عائداً إلى بيته وقص الأمر على زوجته إلى نهايته، فكانت له مطابقة وعلى ذلك موافقة والتزما من ذلك الوقت شروط المسكنة بالروح وثابرا على رحمة المساكين فعَظُم صيتهما وشاع ذكر

فضيلتهما ورحمتهما حتى قصدهما القريب والغريب وصار منزلهما مأوى للغرباء والمساكين فألفوا إلى ذلك ببشاشة وفرح وكان الناس يحصل لهم مع العطاء العزاء وجبر الخاطر لمحبة إيسوذوروس وزوجته ولين كلامهما وحسن لقائهما. وكانوا يقتنعون بما يأخذون ويمضون فرحين مبتهجين وفي بعض الأوقات كان ليس فقط يُعطون بل إذا وجدوا بينهم معوزين يُدخلانهم بيتهما ليمكثوا معهما وينالون ما يحتاجون من غذاء أو كساء. وكان إيسوذوروس وزوجته فرحين بهذا شاكرين الله طالبين إليه أن يعينهما على ذلك العمل إلى النهاية.

" إن أقبلت لخدمة الرب الإله فاثبت على البر والتقوى وأعدد نفسك للتجربة "(سي ٢: ١)

ثابرا إيسوذوروس وزوجته على عمل الخير حتى كانا في أيام الشتاء إذا أتاهما قوم ليس لهم ما يدفعون به ألم البرد يعطيانهم غطاءهما وينامان بغير غطاء لحنوهما ورحمتهما. ولما داوما على هذه السيرة الفاضلة زماناً كثيراً تضعضع حالهما جداً فتداخل المرأة ضعف اليقين وفَتر عزمهما في رحمة المساكين ونظرت في مصالح أولادها وخشيت فقرهم وإعوازهم، فلما اطلع زوجها على ذلك عاتبها ولامها وشدد عزمها قائلاً: إن كان الله هو المعطي وله نعطي فأي شيء

نخشاه؟ وإن نحن توقفنا عن فعل الجميل كعادتنا غيَّر الله حالنا وعوّزنا واعلمي هذا الفكر من الشيطان وإن قاومنا الشيطان واستمر حالنا لا يعوزنا شيء. فطاوعيني أيتها الأخت ولا تأنفي من رحمة المساكين خوفاً من العوز ففي الله الكفاية واتكلي على تلك البركة المسيحية التي أشبعت من القليل الآلاف في البرية وفَضُلَ عنهم أخيراً ما يزيد عن الأصل أضعافاً كثيرة. وإن كنتي تهربين من فعل الخير استصعاباً لتكملته فاسمعي قول الكتاب: " إن الغاصبين يختطفون ملكوت الله " [1] وكل أقوال ربنا يسوع المسيح تحثنا على فعل الرحمة. وظل يعظها حتى استرجعها إلى فعل الرحمة كما كانت أولاً وازدادت نشاطاً وانبساطاً فكثر رزقهما ونمى وظهرت البركة لديهما وتكاثرت. صعب الأمر على الشيطان عدو الخير وساء ذلك في عينيه فألقى في قلوب بعض رؤساء المدينة حقداً وبغضاً وحسداً فمضوا إلى نائب المملكة ونمّوا عليهما ومالوا قلبه وأغروه بما أحيوه من الزور والبهتان. فأرسل النائب جنوداً واعتقل إيسوذوروس وصار يحضره كل يوم ويتوعده عسى أن يأخذ منه شيئاً. أما إيسوذوروس كان عندما تأتيه زوجته إلى السجن يعظها ويعزيها ويوصيها بان لا تقطع رحمة

---

(١) مت ١١: ١٢.

المساكين ولا يضعف قلبها ولا تخشى سطوة النائب وأكد لها أيضاً بأن يجب أن تحب عمل الصدقة والرحمة بالأكثر في وقت الشدة وأخيراً كان يقول لها: امضِ أيتها المباركة وأكثري منها وانكبي على عملها واحسني الظن بالله ليكون لنا عوناً على الشيطان عدو الخير الذي حسدنا. ثم بعد ذلك كان إيسوذوروس يُكثر الابتهال إلى الله تعالى قائلاً: يا ربي وسيدي يسوع المسيح أنت أرسلت ملاكك إلى رسولك بطرس في السجن وفكَّ عنه القيود والسلاسل وأخرجه سالماً وكما فتحت أبواب السجن أمام رسلك هكذا أنا أيضاً يارب فلتدركني عنايتك الإلهية وتعهدني بنعمتك ورحمتك ولا تذكر خطاياي السالفة ولا تُسر بي العدو ولا تطرحني في وقت الشدة بل ليغلب صلاحك يارب كثرة الشر الذي فيَّ واغسلني كثيراً بقطرات رحمتك لأن عملي قليل وذنوبي كثيرة.

يارب إن عمل الإنسان باطل إن لم تدركه عنايتك ومؤازرتك كقولك الطاهر: " إن بغيري لستم تقدرون على شيء " [1] فأسألك أن تمنحني كما يرضيك برحمتك فلك الجود والقدرة ولك ينبغي السجود مع أبيك الصالح والروح القدس إلى الأبد آمين.

---

(١) يو ١٥: ٥.

وبعد ذلك أحضر النائب القديس إيسوذوروس وهدده وتوعده فقال له إيسوذوروس: ليس لي شيء أعطيه لك وإن كان قصدك تأخذ ما أعطاني الله لتدبير حالي وحال المساكين فأنت تعرف الخصم الذي يكره فعل الخير.

فقال له النائب: إنما قيل لي أنك وجدت كنزاً والملوك أحق بذلك.

فقال له القديس: لست أعلم أني وجدت إلا ما بارك الرب لي فيه لأجل أنه جعل فيَّ رأفة على المساكين فأعطيهم مما أعطاني. وإذ كان قد تصدق عليَّ بأن أكون وكيلاً مؤتمناً على مساعدة المساكين والغرباء والمنقطعين فأنا أشكر نعمته على ما أهلني إليه وينبغي لك أنت أيضاً أن تُسر بهذا وتفرح وتساعدني على فعل الخير ليكون لك معي من الله في الخير نصيب.

فقال له النائب: الرؤساء والأكابر سعوا فيك ولم أقدر أن أسمع لقولك بمفردك دون قولهم.

فقال له القديس: إن كان كل ما يقال لك أو يُرفَع إليك صحيحاً فقولهم فيَّ صحيحاً.

فقال النائب: لابد من إخصام قولهم (تصد وتناقض قولهم).

فقال القديس: فإن كانوا خصوماً فلِمَ ألزمتني الحجة دونهم.

قال النائب: قولهم مسموع لأنهم أكابر المدينة ولهم النظر في مصالح المملكة ولم يختلفوا مع كثرتهم في القول.

قال القديس: أليس أنا أولى بإقامة الدليل في دفع ما اتهموه عليَّ؟

فأجاب النائب: هم عندي بمحل العدول لعلو منزلتهم.

قال القديس: إن كان الأمر هكذا فكيف أناقض أنا قولهم على ذلك سوى الله علام الغيوب.

فقال النائب: دع عنك هذا الكلام فلابد من المناقضة.

قال القديس: لا هذا ولا هذا.

قال النائب: فبماذا تخلص؟

أجاب القديس: أخلص بالطريقة التي يخلص بها الله كل مظلوم.

فسأله النائب: وهل أنت مظلوم؟

فأجاب القديس: أنت عَلِمْتَ ذلك وستعلمه أيضاً.

فقال النائب: أنا أطوّل روحي عليك وأكشف وأفحص عن ذلك.

ثم أمر بعودة القديس إلى السجن.

وكان للنائب عادة أن يجتمع بذلك العابد المتقدم ذكره فلما اجتمع به عرفه بما رفعوه الرؤساء في إيسوذوروس.

فقال له العابد: أحضر إيسوذوروس وعاقبه إن شئت ليَكمُل أجره كقول يعقوب الرسول: " ’ن الذين يحبون الله يقعون في البلايا "[1] وقال معلمنا بطرس الرسول: " إذا كنتم تفعلون الشر فتصابون وتصبرون فأي فضل فعلتم وإنما إذا فعلتم الخير ويفترى عليكم وتصبرون حينئذ تتوفر النعمة عليكم من الله "[2] وقيل أيضاً: " يا بني إن أردت أن تخدم الله فهيئ نفسك للتجارب "[3] وقال معلمنا بولس الرسول: " بأحزان كثيرة يتهيأ لنا الدخول إلى ملكوت الله "[4] وزيادة على ذلك أذكرك بقول ربنا يسوع المسيح: " ما أضيق الباب وأكرب الطريق المؤدي إلى الحياة "[5] لذلك قال أحد الآباء القديسين: كل خير لا يلحقه تعب ونصب فليس هو تاماً.

سمع النائب كلام العابد فقال: يا سيدي وكأنك بهذا الرجل عالماً وتعرف جميل أفعاله.

---

(١) راجع يع ١: ٢، ٣.

(٢) ابط ٢: ٢٠.

(٣) سي ٢: ١.

(٤) أع ١٤: ٢٢.

(٥) مت ٧: ١٤.

فقال له العابد: نعم وشكرت الله حيث أنك لم تسيء إليه أكثر من السجن، واعلم وإن كان قصد الله تكملة قديسيه بالمحن إلا أنه يطالبك بما جنيت عليه.

شكر النائب الذي أرشده وشكر العابد على تقديم إرشاد الله له وعلى إعلامه بالأمر ثم قال للعابد: أشتهي أن تستغفر لي منه.

فأجابه العابد تحصل على الاستغفار بالندم على ما وقع والإمساك في المستقبل عن مثل ما وقع منك وإن أردت اغتنام الخيرات لفعل الإحسان والرحمة وهذا الأمر متيسر لك لأنك أنت المخاطب للملك دون غيرك وليس أحد يقدر أن يمانعك أو يتعرض لك. فاتعظ النائب من العابد وبعد ذلك تركه العابد بعد أن صلى لأجله وباركه.

ولما جاء ميعاد الحكم أحضر إيسوذوروس وطلب منه المغفرة عندما كان معه على انفراد وساله أن يدعو له ويصلي من أجله ثم أكد عليه لو جاء وقت وأرسل له بأن يريد أن يراه يحضر إليه ولا يمتنع. ثم بعد ذلك خشى النائب عاقبة هذه الواقعة من الملك لو بلغ له ذلك الأمر فكتب للملك وطالعه بما اتفق فعندما عَلِمَ الملك بذلك استحسن فعل النائب وشكره وأرسل ليطلب إيسوذوروس ليراه.

" اَلْمَلِكُ بِالْعَدْلِ يُثَبِّتُ الأَرْضَ " (أم ٢٩ : ٤)

حضر إيسوذوروس وصار بين يدي الملك فقام له الملك واحتضنه وقبله وأجلسه إلى جانبه ثم قال له: جميل سمعتك شوقني إلى رؤيتك.

فقال إيسوذوروس: فاعل الجميل بنا كلنا هو الله الواحد، وأنت نائبه على الأرض والمساعد للآخرين على فعل كل خير لأن الملوك الأخيار هم أعمدة الدين وعدة المتقين ولهم في كل أحد نصيب جميل وحظ جزيل. وكل الناس إنما هم لأنفسهم أما الملوك فللناس جميعاً فالخير بهم يقوم والنفع بهم يَعُم.

فسأله الملك قائلاً: أحقاً لنا هذا كله؟

أجابه إيسوذوروس: نعم إن كانوا على الصورة المرضية وهم عند الله بهذه الميزة ويكفيك أنت إذ قد سميت باسمه ملكاً. فأنت له نائباً في الحكم بين خلقه.

فسأله الملك: كيف يمكنني أن أكون على أفضل الحالات بالرغم ما أنا عليه من الانشغال بأمور العالم وما أنا عليه من المعصية والبعد عن الطاعة.

فأجابه القديس إيسوذوروس: لقد قيل أن الصورة التي يكون الملك عليها كانت الرعية على مثلها فإني أرى ما دمت متيقظاً محباً

لفعل الخير والرحمة وصنع الجميل فالرعية تتصلح بك ويعود عليك نفعها لأن في المماثلة طلباً لزيادة العلم والعمل والله يعطيك سؤل قلبك.

فقال الملك: لقد نفعتني وأسديت لي معروفاً وحسناً كان قدومك إليَّ وأشكر الله لذلك.

فقال القديس إيسوذوروس: نشكر الله كثيراً وأيضاً الشكر لمن تقدم النفع من جهته أولاً.

فسأله الملك: من هو هذا؟

فأجابه إيسوذوروس: هذا هو العابد المقيم بقرب المدينة التي أنا مقيم فيها.

تشوقت نفس الملك لمشاهدة العابد أيضاً، فأرسل للحال وأحضره وعند وصوله إليه قام واحتضنه وقبل يديه وتبارك منه وأجلسه بجانبه وساله عن حاله.

فأجاب العابد: الشكر لله في جميع الأحوال السراء والضراء وأسأله الصفح عما مضى واستمد منه العون في الحاضر والمستقبل.

فقال الملك: الشكر على ما يَسُر فهو واجب أما على ما يضر فغير معقول.

فقال له العابد: إنما الشكر على ما تنتجه عاقبة الصبر على وقت الضرر لأن الله جعل عاقبة كل ضرر نفعاً للذين لهم النية الصالحة.

فقال الملك: إن الكمال في كل أمر متعذراً خصوصاً على الملوك.

فقال العابد: المتعذر غير الممتنع، وإذا ارتفع الامتناع بقى هناك الإمكان، فكل شيء ممكن ومستطاع للمؤمن الحق وخصوصاً الملوك لأن الملك إن كان يطالب الرعية بالعدل والإنصاف فيما بينهم ويساعدهم على ذلك فبالأولى أن يلزم نفسه لأن به يليق العدل والإنصاف. والأوفق والأحق للملك ذلك لأجل حاجة الرعية إلى العدل والإنصاف من قبل الله أكثر بكثير من حاجة الملك من الرعية.

فقال له الملك: حسناً قلت وإنما إذا كان الملك مشتغل ومنشغل بأمر الرعية والاهتمام بدفع كل ما هو ضار بعيداً عنهم فكيف يتفرغ لعمل ما تكمل به نفسه في رضى الله؟

فأجابه العابد: النظر في مصالح الرعية وإشغال نفس الملك واستغراق فكره فيما هو نافع وصالح ومرضي عند الله وذلك لأجل نفسه ودفع ما هو ضار عن الرعية فذلك مرضي عند الله وبه تتكمّل نفس الملك في الخير.

فقال الملك: ليس ذلك بمتيسر في كل وقت بأن ينتبه الإنسان إلى الخير بمفرده، لكن يمكنه ذلك بضابط ومرشد حتى ولو كان عارفاً به لأن المعرفة بالخير ليست كافية للإنسان وحده ولو كان هذا لسارع إليه كل عارف به وما كان يتأخر عن الفضيلة إلا النادر من الناس وبغير منشط ومرغب لن تفيد المعرفة فأسعفني أيها العالم بمقامك عندي وتكون لي عوناً وباعثاً ومسهلاً لعمل الخير على الدوام.

فقال له العابد: مقامي عندك وإن كان نافعاً بك فهو مضر بي أنا ولا يفيدني نفعك أنت بضرري فليس هناك حاجة سوى على الوقوف على ما سمعته مني والعمل به، ولو أقمت عندك ما نالك مني غير ما عرَّفتك إياه وفهَّمتك معناه وأزيدك ما يقوم عن مقامي عندك وهو المثابرة على مطالعة الكتب الإلهية والكشف والفحص عن أخبار الملوك الأخيار وحسن سيرتهم واقتفاء آثارهم وأيضاً لزوم الصلاة فإنها مناجاة الله وهي تنير العقل وتلهم الصواب وتخلص من التجارب وتنجي من المصاعب. واستعن برأي أفاضل مملكتك وأكابرها وتوكل على الرب وأكثر من الصدقة والرحمة على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والمنقطعين وقد أشار بذلك دانيال النبي على بختنصر الملك قائلاً: " استغفر عن ذنوبك بصدقاتك واغسل آثامك برحمتك واجعل

الابتهال إلى الله تعالى عوناً دائماً "[1] واعتمد على المراقبة لله حيثما توجهت وتوشح بحُلَّة الفضائل وارتدي رداء الحلم والتواضع فيعينك الله في كل أمورك.

فقال الملك للعابد: فأدعو لي الآن.

فقال العابد: الله يعصمك من الزلل ويرشدك إلى العلم والعمل ويوفقك لرعاية رعيتك.

عند ذلك تبارك الملك منه ومن إيسوذوروس وكتب إلى نائبه كتاباً بالتوصية بهما وعليهما بالرعاية والإكرام كما زودهما أيضاً وكساهما بما يلائمهما. ولما وصلا إلى المدينة مضى العابد إلى مغارته وإيسوذوروس إلى بيته وزوجته وأولاده وحدثهم بجميل ما فعل الله معه فشكروا جميعهم الله. وأما القوم الذين سعوا بإيسوذوروس فإنهم نالوا من الملك ونائبه ما يكفيهم من العقاب.

" صَابِرِينَ فِي الضِّيْقِ مُواظِبِينَ عَلَى الصَّلاَةِ " (رو ١٢: ١٢)

بعد ذلك بقليل حدث لإيسوذوروس من قلة المكسب ما أنقص رأس ماله وكاد أن يضمحل من يديه، فاغتمت زوجته أيضاً كالأول فقال لها زوجها المبارك: لا تحزني يا أختي فقد رأينا عناية الله بنا

---

(١) دا ٤: ٢٧.

مراراً كثيرة ولم يتركنا أبداً وإنما الله يريد أن يمتحن فكرنا هل يوقفنا هذا ويمنعنا من صنع البر والمعروف ورحمة المساكين أم لا؟ والشيطان أيضاً يحثنا على أن نوفر لأولادنا ولأنفسنا عند الكبر شيئاً ينفعنا وننقص اهتمامنا بالمساكين، لم تلتفت زوجته لذلك الكلام فقال لها: لست أرى أنا من الواجب أيتها المرأة أن يستعين الإنسان على التجارب إلا بفعل الخير ويدفع عنه الشك وضعف اليقين فذلك قصد الشيطان لنفقد ثقتنا بالله. ومن أين لنا أن نعرف الأولاد سوف يعيشون حتى يحتاجون ويعتازون ولا يجب أن ندخر شيئاً لنا أو لأولادنا أو لغيرنا إلا ما هو في السماء حسب قول ربنا يسوع المسيح. وظل يعظها ويطلب إلى الله في أمرها حتى رجعت عن غضبها وسوء رأيها وانبسطت معه على العادة. وكان القديس إيسوذوروس يكثر الطلبة إلى الله تعالى بأن لا يدع العدو يفتخر عليها لضعف قلبها. وكان يقول: يا سيدي يسوع المسيح شدد من عزم هذه المرأة فهي لي معينة ولا تدع للشكوك موضع فينا بل عضدنا بقوتك الإلهية فبك يتم كل خير ومنك يُستَمَدَ كل عون ولك يحق كل مجد وكرامة مع أبيك الصالح والروح القدس من الآن وإلى الأبد آمين.

قام إيسوذوروس وأخذ زوجته ومضيا إلى ذلك العابد وشرح له صورة الحال وأوقفه على ما أوقعه الشيطان من الفكر الرديء في نفس زوجته من ضعف اليقين من عوز الأولاد ومحنة الكبر وغير ذلك.

فقال لها العابد: اعلمي أن الامرأة خُلقت لمعاونة الرجل فينبغي أن تكوني مساعدة لا ممانعة ومتى خرجتي عن مثل هذا فقد تعديتي أمر الخالق تعالى ولعلك تريدين أن تماثلي حواء وتجرين بعلك إلى المعصية وتعدلينه عن الحق إلى الفساد وسوء الظن بالله. وقد كان أولى بكِ إذا لم تكوني مساعدة له كعادتك فلا تكوني له ممانعة ومعوقة لعمل الخير وقد اخترتي لنفسك خطأً مضاعفاً إذ لا تعملين خيراً وأيضاً تمنعين رجلك منه وترومين أن تكوني كامرأة أيوب التي لم تر أن تكون مشاركة لبعلها في ألمه وقد قصدت أن تجره إلى المعصية بما أشارت به عليه أن يسخط ويجدف على باريه وخالقه.

فقالت له الامرأة (زوجة إيسوذوروس): يا سيدي ما منعت من الخير بل خشيت الفقر لأجل الأولاد.

فقال لها العابد: وأي ضرر أعظم من سوء الظن بالله تعالى وأي فقر لا يحصل مع القساوة. ألا تعلمين أن الأغنياء بالله لا يعدمون شيئاً

كقول داود النبي: " المتوكلون على الرب لا يعدمون الخيرات " [1] وقال أيضاً: " كنت صبياً والآن شخت ولم أرَ صدِّيقاً جاع ولا ذريته اعتازت خبزاً " [2] وإن كنتِ قد بدأتِ جيداً فلا تؤثرين أن تختمي العمل رديئاً والأشياء كلها بتمامها وغايتها. أما سمعتي مثل الكرام الذي قاله ربنا يسوع المسيح وكيف أعطى الأجرة لأصحاب الساعة الحادية عشر كالأولين فإنه يشير بذلك أنه لا يجازي الإنسان إلا عن نهاية عمله وهل أن تضيعي جميع ما عملتيه وتذهبيه باطلاً في هذه الساعة الحادية عشر الأخيرة التي اغتنمها الكاملون وتكمَّل بها العاجزون. وإذا كان الذين يؤثرون الكَرَم لأجل المديح من الناس فقط فليس لهم عند الله أجر ولا مجازاة من الناس ليس يقصرون في ذلك لئلا يبطل مديحهم من الناس فكم بالحري يجب لمن يعمل الخير لوجه الله تعالى خالصاً وله رجاء فقط في حسن مجازاة من الله له عاجلاً أو آجلاً: الجزاء العاجل في هذه الدنيا بأن الله يقيه من البلايا والآفات كما اتفق لكم في هذا الأوان لما سعوا بكم الرؤساء وكيف أحسن الرب إليكم وخلصكم وقربكم للملك وأحبكم وأبعد أعداءكم والله أيضاً خزاهم. فالله

---

(١) مز ٣٤: ٩، ١٠.

(٢) مز ٣٧: ٢٥.

تعالى يسمح ببلية الصديق والمنافق. فالمنافق يضمحل في بلواه وتَشَمت به أعداؤه أما الرجل الصديق فحسب قول داود النبي: " إذا وقع الصديق لا يجزع فإن الرب ماسك بيده " [1] وقد نظرت عيناكِ منذ زمن قليل عندما جربكم عدو الخير فكابدتم وصبرتم فعضدكم الرب وبارك لكم وأنمى لكم وصار كل شيء للخير لكِ ولزوجك ولأولادك. ومكافأة الله في الآجل الذي هو في نهاية العمر أي في حال الخروج من هذه الدنيا فإنه يهب لنا الملكوت السمائي والخيرات الأبدية الدائمة بلا زوال. فانهضي الآن وقومي بنشاط وانبساط واستمري على جميل عاداتك ودعي عنك سوء الظن حتى لو أدى الأمر أن تكرهين نفسك، واغلبي ضعف الطبيعة واطردي فكر طول العمر وفكر طول الأمل بفكر قصر الوقت وحضور الأجل فمن أين لنا علم بالأمور الغيبية ولو كانت الحياة في هذه الدنيا بدوام المال ما كان مات غني ولا عاش فقير ولولا ما قدمتموه من رحمة للمساكين من أجل الله ما خلّصكم من يد نائب الملك بل كان هلك جميع ما لكم وأنفسكم أيضاً معاً. فدعي المال بعيداً وإن نفذ ففي طاعة الله ورضاه أجمل وأفضل من المال.

---

(١) مز ٣٧: ٢٤.

فقالت المرأة: قد أقنعني كلامك الآن وإنما كيف أتعجب كيف يعود بداخلي الفكر الرديء؟

فأجاب العابد: هكذا جرت العادة لعامل الفضيلة تارة يُقاتل من قبل ضعف الطبيعة وتارة من عدو الخير وتارة من القوم الأشرار الحسدة.

قالت المرأة: زدني وعظاً لأنتفع بزيادة.

قال العابد: هذا يدل على أنك ما أنتِ حاضرة بالكلية ولا مستمعة بجملتك وإلا كان بعض ما قلته الآن كافياً. فأنتِ حاضرة بجسدك غائبة بوعيك مستمعة في الظاهر، مسروقة في الباطن، حسب قول ربنا في الإنجيل: " مثل إنسان يسمع كلام الله في الوقت الحاضر ويفهمه ويمضي بعد ذلك يخنقه فكر هموم هذا العالم فينساه للوقت "[1].

سألت المرأة: هل يوجد دواء يُشفي من هذا المرض؟

أجاب العابد: نعم فالدواء هو عناية الله تعالى للعام والخاص، لمن يتصور الموت ويترقبه في كل ساعة ويخشى الدينونة ويوم الحساب وأليم العقاب فيثابر بكليته على ما يخلصه من ذلك ويوصله إلى الراحة والنعيم والأمن والطمأنينة التي بلا خوف ولا زوال.

---

(١) مت ١٣: ٢٢.

فقالت المرأة: هذه المعدودات كثيرة وضعفي أكثر منها فعرفني الأهم بي والأقرب والأنفع لي؟

فأجاب العابد: قد قلت لك وأقول ليس ينفعك غير ترك سوء الظن وضعف اليقين وذكر الموت وقُربه وزوال هذه الدنيا كالظل الزائل وكحلم النائم.

فقالت المرأة: يا سيدي لعلك اطلعت على قرب الوفاة وانقضاء الحياة.

فقال العابد: المطَّلع على الكل واحد هو الله الذي بيده سلطان الموت والحياة.

قالت المرأة: قد أشعرني كلامك أن منسج حياتي قد بدأ ينقطع وأن رباطي سينحل قريباً وقد أغناني التلويح عن التصريح. فأنا الآن أسألك أن تؤازرني بالدعاء لتتوفر همتي للاستعداد والقدوم أمام الله الديان العادل، فأسعفني يا أبي بطلباتك في هذه الدار وعلى الخروج منها وزودني بدعائك فيما بعد لأجل الراحة والقبول من الله وليكافئك الله عني مكافأة من يرد الضال ليحيي نفسه من الموت.

قال لها العابد: الله يُكمِل عملك ويحسن منتهاكِ ويعظم رجاء أملك حال الوفاة ويجعلني وإياكِ ممن تيقظ عند الأواخر وكمل الأوامر وارد على الديان وهو حامل ثمر الإحسان.

ولما انتهى العابد من كلامه مع المرأة تقدم إليه إيسوذوروس وقبل قدميه وقال له:

حقاً يا سيدي لقد ربحتنا وجَبَرتَ كسرنا وأقمت سقوط نفوسنا فلك من الله أضعاف ما منحتنا. ثم بعد ذلك تبارك الزوجان منه وعادا إلى منزلهما وانكبا على عملهما.

" أَنَّكُمْ تُؤَهَّلُونَ لِمَلَكُوتِ اللهِ الَّذِي لأَجْلِهِ تَتَأَلَّمُونَ أَيْضاً "
(٢تس ١: ٥)

وبعد زمان آخر بدأ مالهما ينقص نقصاً متوالياً ولم يعد يزداد لأن الله أراد أن يرقي درجاتهما مثل أيوب واستمر ما لديهما يتناقص حتى لم يبق لهما ما يفضل ليعطيا المساكين فتألمت المرأة واغتمت جداً ليس لأجل أولادها كالأول ولا لأجل الخوف من الفقر بل توجعاً للمساكين لأن ضعف اليقين لم يكن يعاودها من قِبَل دعاء العابد. وبقيا إيسوذوروس وزوجته في حال العدم يحرمان نفسيهما ويعطيان المساكين ولم يقدما لنفسيهما في القوت إلا الخبز فقط ولأولادهما

أيضاً. لأن حب الله والرحمة للمساكين قد غلبا عليهما وكان أولادهما يتألمون ويقلقون لتغيير عوائدهم وطرق معيشتهم وهما يُصبرِّانهم ويقولا لهم: هذه الساعة سيأتي الخبز وتأكلون. وكان يكثران الطلبة إلى الله ليمنحهما الصبر والشكر.

قالت المرأة لزوجها: لما كان لنا مال كنا نعامل الله منه والآن قد ذهب المال فماذا نفعل؟

فأجابها إيسوذوروس: ألا تسمعي قول داود النبي: " إن اليسير للصديق خير من كثرة غنى الخطاة " [1] فنحن في بركة الصديقين نعيش ونواسي إخوة يسوع المسيح الذي أحلهم محل نفسه ودعاهم الرسول بولس قديسين وأطهاراً.

فقالت المرأة: قد ذهب ما لنا ونقص عملنا وقل أجرنا وذهب عنا الكمال الذي كنا نتوقعه لنا عند الله.

قال إيسوذوروس: لم ينقص شيء وربما يتيسر بنا الكمال من حيث جهلنا به لأن كلما تصورنا نقصان أعمالنا اتضعنا وتمسكنا بارواحنا أمام الله وكنا عند ذواتنا بمنزلة العاجز المقصر فكلما نقصنا من مادة الصدقة زادنا الله في فضيلة المسكنة بالروح وهي

---

(١) مز ٣٧: ١٦.

أعظم الأعمال وكلما توجعنا لعوز المساكين زادنا الله براً وأجراً وفضيلة الصبر والشكر أعظم من فضيلة الصدقة. فإن أيوب وُجِدَ بصبره في بلواه وشكره على ما ابتلاه أكثر مما كان عليه عند ثروته وغناه. وعلى كل حال نحن فعلة والله هو المالك والمعطي وله أن يستخدمنا فيما يحب ويختار وليس لنا نحن غير القبول والرضى بما يرتضي هو به وهذه كانت هي سجية أيوب لأنه تحقق أن المال كان لله وكان هو فيه على سبيل الوكالة فلما ذهب المال لم يندم عليه ولا تذمر ولا تبرم بصحة يقينه وصدق نيته.

قالت المرأة: أيوب تألم وضاق سعيه أليس كذلك؟

قال رجلها: نعم.

فقالت: فأي فضيلة بقيت له؟

قال إيسوذوروس: ليس يعدم الفضيلة ممن يتألم ويضيق سعيه مع الصبر والشكر لأنه يتألم فيصبر ويضيق نشاطه فيتجلد ويفتقر فيشكر.

قالت المرأة: إن كان أيوب قد قال إن الله الذي دفع له المال والأولاد وهو كان كالمستودع من قِبَل الله فلماذا تألم عند استرجاع الوديعة لمودعها؟

فأجاب رجلها: تعقلي جيداً واسمعي الجواب عنه، فلقد بلغني إلى هذا الحد أن الإنسان له حالتان: إحداهما عاقلة قابلة الخير والأخرى شهوانية حيوانية منعكفة على شهوات الدنيا ولذاتها فصَحَّ اعتقاد أيوب في الأول أن الله أعطى وهو أخذ من تلقاء النفس العاقلة، أما تألمه وضيقه من قِبَل النفس الحيوانية الشهوانية فنفسه الحيوانية هي التي تألمت لفقد الأولاد وضاقت لعدم الألفة والعادة ونفسه العاقلة أظهرت ما يليق بها من الصبر الجميل والشكر الجزيل وحسن اليقين وصحة الاعتقاد وحقاً إن فضيلة أيوب تفوق كل الفضائل وذلك لأنه قال: " الله هو الذي أعطى وهو الذي أخذ "[1] ولم يقل أن الله هو الذي أعطى وهو الذي أخذ وسيعطي أيضاً حتى لا يكون صبره وشكره لأجل إنه يتوقع استرجاع ما أُخِذَ منه.

فقالت المرأة: أليس كان أيوب يعتقد أن الله قادر أن يعوضه؟

قال إيسوذوروس: نعم وإلا أنه لم يؤمل ذلك ولا يعلم قصد الرب ولو علم الغاية ما كان تألم وإنما ابتلاه الله ليظهر أنه صديق وبار وتتسامع به آذان الناس فيقتفون أثره ويتمثلون به ويقتدون بفضائله.

---

(١) أي ١: ٢١.

قالت المرأة: كيف يُثبت برُّ أيوب من الحالتين جميعا وقد تضايق في نفسه حتى لعن يوم مولده؟

فقال إيسوذوروس: إنما لعن يوم مولده وليس عليه جُناح في هذا وإنما فعل هذا حين شك فيه أصدقاؤه الملوك وجدَّفوا على الله بسبب تحيرهم في أموره فلعن يوم مولده الذي أوجب هذا وذاك. وكثير من الصالحين فعلوا هذا وذلك لأجل شدة الزمان وصعوبة الأحوال وتغيير عوائد ذلك الإنسان وأحكام الله فيه التي لا تدرك. قال عزرا في مخاطبته لملاك الله عند فحص أمور الباري عز وجل في الدنيا وأناسها المختلفة الأنواع المضادة لعقول البشر: خير للإنسان لو لم يولد – هذا مجرى حال أيوب – فإن ضميره في ذلك) أي يقصد بذلك) أن ليت ،كان يوم ميلاده معدوماً.

قالت المرأة: حينئذ إن كان أيوب لا يعلم ولا يتوقع أن الله سيعوضه أضعاف ما أُخِذَ منه ولم يكن له رجاء الآخرة وقد صبر وشكر ولم يدع ألم الفقر والعدم والوجع يملك نفسه فكم بالحري يجب علينا نحن أن نماثله ونزيد عليه إذ لنا رجاء الآخرة.

ثم نهضا لوقتهما والتزما بعمل الصدقة والرحمة على المساكين بما تبقى لهما ولم يلتفتا إلى مصلحة أولادهما فنفذ الذهب والفضة

فأرادا أن يبيعا الثياب والأثاث وكل أدوات منزلهما وكل ما هو معلق على جدران الحوائط لزينة المنزل وقبل حلول هذا مرض أولادهما وماتوا واغتما عليهم أكثر من فقد المال وغيره فتقدم إيسوذوروس قائلاً لزوجته: قد كان ظننا أن أولادنا يعيشون ونموت ونحن والآن قد انعكس الأمر وخاب الأمل وماتوا هم وبقينا نحن ومن أين لنا علماً أن نعيش بعدهم فاطرحي الآن أمر الأولاد فقد مضوا وفازوا بالفردوس وقد فعل الله بنا جميلاً إذ قطع علاقتنا بهذه الدنيا وسهل علينا الطريق والوصول إليه. لأننا كنا نود بقاء المال لأجل الأولاد. واعلمي أن الله لو أخذنا قبل أولادنا لما هان عليهم فراقهم منا ونحن كنا أحببنا الدوام معهم. أما الآن فقد هانت علينا هذه الدنيا وتُقنا إلى الخروج منها والانتقال عنها. فالشكر لله على هذه النعمة العظيمة التي لم نستحقها فإنه لو أُعدمنا المال قبل الأولاد لكنا نتألم لأجلهم. فالآن تعزي وتقوي.

قالت المرأة: هل تطلب مني الآن لا أحزن البتة؟

قال إيسوذوروس: لا إنما أطلب منك أن لا يملكك الحزن ويعوقك عن فضيلتي الصبر والشكر فهاتين الفضيلتين لنا الآن أليق وبنا أوفق إذ لم يبق لنا تعليقات تشغلنا وتلهينا ويكفي الدنيا أنها سُميت بدار

الحزن والشقاء ودار الفناء والمفارقة أما دار الآخرة فيُسمى بدار البقاء والدوام والراحة والنعيم بغير زوال ولا نهاية والواجب على العاقل اختيار الأفضل والأنفع ولم يبق لنا الآن غير الاتجاه نحو فعل ما يقربنا إلى الله ويحسن قبولنا أمامه وهذا هو الأهم بالحقيقة. فلما أكمل إيسوذوروس الوعظ لزوجته المباركة تعزت وشكرت الله وقالت: ليكن اسم الرب مباركاً من الآن وإلى الأبد آمين.

ثم إنهما واريا أولادهما التراب وعادا إلى منزلهما فوزعا جميع ما تبقى وفرقاه على الفقراء والمساكين وطلبا منهم الدعاء لهما والرحمة لأولادهما وصارا إلى غاية الفقر والمسكنة وانصرف عنهما من ذلك اليوم المساكين والغرباء وصارا هما من جملة المساكين المعوزين وكانا سعداء المدينة وأغنياؤها يعطونهما بزيادة لعلمهما بهما وكانا هما بدورهما يبقيان من مما نالهما ويدفعانه للمساكين ولم يقطعا عادتهما الحسنة ويوصيان الذين يعطيانهم لا يذكروا ذلك.

وكان إيسوذوروس لا يفتر من وعظ زوجته لئلا تصغر نفسها وتتبرم وتتذمر فكان يقول لها في جملة كلامه اعلمي أن حالنا اليوم أصلح مما كنا فيه أولاً عند الله بالحقيقة.

قالت المرأة: فهل تناولنا نحن الصدقة هو عظيم عند الله لنا دون غيرنا من هؤلاء المساكين؟

فأجاب إيسوذوروس: نعم أضعاف لأن هؤلاء ربما أنهم ألفوا شيئاً غير هذا والآن يجب لنا أن نفرح فنشكر الله الذي أهلنا لجميع الأعمال من أقسام الفضيلة فنسأل الرب سبحانه أن يعيننا على هذا الحال إلى التمام لنفوز بالقيام عن يمين المسيح وقد حفظ لنا الله العمل الأول بهذا العمل الثاني والأصل في هذا جميعه النية الجميلة مع الله وحسن الظن به والشكر له على السراء والضراء شكراً مخلصاً يستمد العون منه كما أنه زادنا نعمة فوق نعمة لأن المتصدق عند الله أفضل من المصدق إذا كانت المتصدق شاكراً بهيج غير متبرم وخصوصاً إن كان أولاً ذو مال وسعة. مثلما مَنْ كان محتاجاً أن يتناول صدقتنا أولاً صرنا نحن اليوم نتناول منه الصدقة وهذا فيه مشقة على النفس فإذا صبرت عليه شاكرة غير متبرمة تضاعفت لها الحسنات واستحقت من الله أعظم الكرامات. وكان الطوباوي إيسوذوروس إذا فرغ من وعظ زوجته يصلي ويبتهل إلى الله بتضرع ودموع قائلاً: يا الله أنت المتحنن العطوف الرحيم محب البشر كما منحتنا أولاً أن نعطي المساكين بفرح وانبساط فليكن تذللنا بين

يديك وأوجاعنا وانكسار قلبنا كقربان المساء لأن كل شيء لنا هو عطية وخير منك ويليق بك تكملته ودوامه علينا فنحن مقرين بضعفنا فأيدنا بمعونتك كقولك أن بغيرك لا ينال أحد شيئاً لأن لك القدرة والمجد والعظمة إلى الأبد آمين.

" بِضِيقَاتٍ كَثِيرَةٍ يَنْبَغِي أَنْ نَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ " (أع ١٤: ٢٢)

فلما داما على هذا الحال حسدهما الشيطان فطرح في قلب بعض الناس بغضاً وحنقاً ليتحدثوا مع أكابر المدينة وسعداءها – الذين يسعفونهما ويَقدمون على مساعدتهما وإعطاء احتياجهما لعلمهم بما كانا عليه من الخيرات – قائلين أن إيسوذوروس وزوجته إنهما إلى الآن غنيان وثريان وإنما قصدهما بالتظاهر بالفقر حتى يسترون حالهما خوفاً من السلطان. وأكثروا من هذا الكلام مما جعلهم يتوقفون عن مساعدة القديس إيسوذوروس وزوجته فتناقصت أحوالهما بزيادة إلى أن صارا يبيتا بعض الأوقات بغير قوت فتألما واغتما وكاد حالهما يفسد رخصوصاً المرأة.

نهض البار إيسوذوروس وتوجه صوب ذلك العابد وقص عليه ذلك فقال له: لقد سرَّيتني (جعلتني مسروراً) بهذا الأمر.

فسأله إيسوذوروس: كيف ذلك يا أبي؟

فأجابه: هذا الذي تشكو منه هو غاية الخير والكمال من عملكما جميعاً وماذا يكون بعد الكمال ونضج الثمار إلا القطاف.

فقال إيسوذوروس: كلانا يا أبي.

أجاب العابد: لا بل هي تتقدم فامض الآن وعزي زوجتك وعرفها برضى الله عنها وإذا واريتها التراب عُد إلى هنا لأعلمك ما تكون عليه.

فسأل إيسوذوروس العابد قائلاً: وكيف يكون عملي مع ذلك المقيم على ضرري؟

فأجاب العابد: اصبر عليه واحتمله وادع له وصلي لأجله وإن قدمت فاشكره كواجهة واغتنم فرصة مساعدته لك على الوصول لطريق الكمال فلا يوجد في كل وقت حدوث هذا القصد التام وإياك والضجر والهروب من بركة الاحتمال ولا الهروب بالقلب أيضاً أي داخلك ممتلئ سلام لئلا يسلب عدو كل بر منك الكنز الذي تعبت لأجله إلى أن وصلت إليه فيخفى عنك ولا تعود تراه.

قال إيسوذوروس: أظن أنه ما صادف أحد من الناس ما صادفت أنا من البلايا؟

فأجابه العابد قائلاً: ما زال الإنسان يقول هكذا: الذي نالني ما نال غيري، حقاً أقول لك أن الذي ألَّمني من الآلام في هذه المدينة أضعاف ما ألَّمك وما نلته من الآلام.

قال إيسوذوروس: أسألك يا أبي تعلمني ذلك لتعزيتي.

قال العابد: إذا عدت إليَّ عرفتك، فالأهم بك الآن تمضي لتواري زوجتك وقبل ذلك تتزود منها بالدعاء.

عاد إيسوذوروس إلى زوجته فلما رأته نهضت واتجهت إليه وسلمت عليه وقبلت يديه فنظرته كئيباً مقتضب الوجه، فساء ذلك في عينيها وقالت له: ما بالك هكذا لعلك ما وجدت العابد.

فقال لها: وجدته.

فقالت ما شانك؟

قال: خير.

قالت: ما هذه هي علامة الخير؟

قال: من الخير ما يفرح ومنه ضد ذلك.

قالت: هل هذا الخير لنا مشترك؟

قال: لا، لو كان هكذا لِمَا غمني.

قالت: أفما يمكنك أن تكشف لي هذا الأمر؟

قال: لا ، لأن إفشائه يزيد غمي وسماعه مؤلم ، لكن عدم التصريح به أروح وأجمل.

فألحت عليه زوجته ليعلن لها الأمر. فلما بدأ يتكلم معها هطلت عيناه بالدموع فأمسك نفسه قليلاً ثم قال: العابد ذكر لي إنكِ تفارقين هذا الجسد عن قريب وتصيري إلى الراحة الأبدية وهو يهنئكِ بذلك وإنما يشق علىَّ أنا ذلك لعدم مشاهدتك وحرماني من مؤانستك لي لكني أرجع إلى الرضى الذي يريده الرب فلما انتهى من كلامه تداخلها للوقت الخوف والرعدة وجرت دموعها وقالت: يا أخي فهل أعلمك إني أجد راحة عند الله؟

فأجابها قائلاً: نعم أما قلت لكِ أن العابد يهنئكِ ويبشركِ بما لا تعرفين من الخير المعد لكِ.

قالت: فلِمَا لا يعمنا الخير جميعاً وأنت تُقدم على عمل الخير ولك الاستعداد أكثر مني؟

فأجابها: علم الله في خلقه أفضل من علم الناس وليس أحد من البشر يعلم مصلحته أكثر من الله وليس لنا إلا القبول والطاعة.

وللوقت حُمَّت المرأة لِمَا داخلها من الكلام ثم استفاقت ونهضت تصلي وتطلب من الله بحرقة قلب وتوجع وبدموع جارية حتى خارت قواها قائلة:

يارب أنت الذي يأتي إليك الكل لأن أرواحهم بيدك ورحمتك تسع الجميع وجودك يعم كافة الخليقة، فاغفر لي ذنوبي واصفح عن زلاتي واستر نقصي وعيوبي وتغسلني رحمتك فأبيض أكثر من الثلج وتسمعني سروراً وفرحاً لتبتهج عظامي، اللهم هذه الساعة الحادية عشر فلا تهملني من نعمتك ولا تغفل عني رحمتك فعما قليل أذهب ولا أعود أرجع فما دام لي نسمة حياة أطلب بأن تحسن حضوري إليك وقدومي أمامك ووقوفي لديك واجعل دموعي الآن كدموع تلك التي غسلت رجليك بدموعها. اللهم أشرق وجهك علىَّ وأضيء لي نورك الأبدي. اللهم آزرني بملائكتك العلوية ليحملوني إلى مساكنك النورانية واسمعني صوتك الفرح فإن لك القوة والقدرة والعظمة والافتخار إلى أبد الآباد ودهر الدهور آمين.

فلما فرغت من صلاتها جلست وأسندت رأسها على الحائط قائلة لزوجها: ادعِ لي وصلي لأجلي ولا تقطع ذكري وتذكاري.

فقال لها: أنتِ الآن التي يجب عليك أن تذكريني فإنك ماضية حيث الراحة وأنا مقيم في دار التعب.

فقالت له: أنت مقيم أما أنا مسافرة والمسافر في حاجة إلى الدعاء فعلى أية حال يجب على كل منا الدعاء لصاحبه.

فقال إيسوذوروس: ذلك يجب عليَّ من غير سؤال فاذكريني أنت لألحق بكِ عاجلاً.

فقالت له: الله يتولاك ولا يعوزك شيئاً مما تجد به القبول من الله ومما تجد به الراحة وربنا يسوع المسيح يبلغك غاية ما تطلبه منه ويجمعنا قريباً في مستقر الرحمة بطلبات الذين أرضوا الرب بأعمالهم الصالحة آمين. ثم نهضت قائمة وسجدت على الأرض قائلة: يا أب الأرواح اقبل روحي إليك وأحسن قدومي عليك وأسلمت للوقت روحها الطاهرة وهي ساجدة.

قام القديس إيسوذوروس مجتهداً بتكفينها وقبل يديها وتبارك منها وبعد ذلك حملوها إلى البيعة وشاع خبر رقادها في المدينة، فحضر الأغنياء والفقراء للبيعة قاصدين التبرك من جسدها فكانوا يقبلون التابوت الذي به جسدها. ولما أكملوا صلاة تجنيزها حُمِلَت من الكنيسة ودفنت بسلام. أما إيسوذوروس فقد تألم جداً لأجل فراقها

متوجعاً لوحشتها ثم عاد إلى بيته وهو لا يعي شيئاً وقد كان حَمَ نفسه بدموعه خاضعاً لمشيئة الله. وبعد ذلك مضى إلى العابد حسب وصيته.

" كَثِيرَةٌ هِيَ بَلاَيَا الصِّدِّيقِ وَمِنْ جَمِيعِهَا يُنَجِّيهِ الرَّبُّ "

(مز ٣٤: ١٩)

حضر القديس إيسوذوروس عند العابد وعرفه كل شيء قد كان فعزاه وقواه ثم التفت إلى إيسوذوروس وقال له: لا تعمل هكذا من البكاء والنحيب مرة أخرى فإن زوجتك صارت إلى الراحة والنعيم.

قال إيسوذوروس: يا سيدي قد مضى ما مضى فما الذي تدبرني به الآن؟!

فأجاب العابد: تقيم عندي ههنا وتلزم نفسك بما يليق بك فإنك ستسافر عن قريب والطريق بعيد فتزود وتأهب لذلك السفر بمعونة إلهك.

فقال إيسوذوروس: بصلاتك يا أبي لكن أسألك أن تنجز لي وعدك وتخبرني بما أتى عليك من الضيقات.

قال العابد: كثيرة هي البلايا والضيقات التي أصابتني ولكن الوقت قصير لأسردها لك.

فقال له إيسوذوروس: فمهما تيسر منه فقل لعزائي وكفى.

فقال العابد: كان إنسان عابد محب إلىَّ ومساعد لي ويزورني دائماً ونجلس سوياً طالباً مني أن أعظه وأعزيه وفي وقت من الأوقات حُسن بفكره أن يجتمع بأهل العالم ويتقرب إليهم خير له من الوحدة والبعد والانقطاع ولما فعل ذلك تميز حاله ووجد كثير من الناس مقبلين إلىَّ فدخله الحسد والغيرة حتى أنه خرج عما كان معي عليه من المحبة فالحسد غيَّره نحوي وتملكه واستماله إلى البغضة والكراهية والنميمة والسعاية الرديئة الذميمة في باطنه وتزايد به الحال فأكثر من السب والازدراء والتحذير مني والبعد عني وتبعه كثير من الناس الذين أقنعهم بذلك ولم يكتفِ بذلك بل اجتمع بمن كان لي منهم ود ونفع واستمال نفوسهم عن حسن الظن بي إلى سوء الظن فقطعوا اهتمامهم بي وكانت حاجاتي الضرورية منهم ولم يلتفتوا إلىَّ.

وبقى ذلك الرجل مترقباً أيضاً عسى أن يحضر إلىَّ أحد بعد ذلك ليحسن إلىَّ ليغيره ويفسد قلبه علىَّ وأقمت على مثل هذا الحال سنتين وهو متظاهراً لا يفعل ذلك ولم يراعِ مشاعري ولم يحثه قلبه على المحبة التي كانت له معي ليرجع ويعود بل كان يتنصل مما فعله معي. أما أنا لطول المدة سمجت عندي أفعاله فأمسكت عن عتابه وملامته

وأحسنت إليه وأثنيت عليه وشكرته ومدحته عند من اجتمع به وكان عندي قائلاً: حقاً ذاك أخير مني. وأيضاً صليت من أجله ودعوت له حتى يوقظه الله ويرجع إلى نفسه ولا يُؤاخذه من جهتي وبعد زمان طويل سَكَنْ عن هذا ورجع عن ما كان يفعله ولكن عدو كل بر لم يسكت فانتبش لي غيره وقام مقامه وأزيد منه فكان يجاهد بالأكثر ويعجبه ما يفعله ويُسر به ويصول عليَّ ويتوعدني بأكثر ما تصل قدرته إليه. واشتدت الضيقات وكثرت عليَّ فنهض آخر أشد من الاثنين ووثب عليَّ كالأسد وعن قليل اشتغل بعيداً عني ووكل بي غيره أشد منه وكان لي من إنسان بعض المحبة وذلك أيضاً عاد فأساء إليَّ وتعصب عليَّ مع أولئك فضاقت بي الأحوال فألقيت أموري على الله العالم بالسر والعلانية ومع أولئك أقمت نحو ثلاثين سنة أكابد ما يأتي منهم من الضيقات ولا أعتقد أن الزمان خلا بي خالياً بمن يضادني ويضايقني وأنا إلى الآن في هذه المضايقات ولكثرة التكرار وطول المدة صار لي بهذه الضيقات ألفة وبقيت غير مكترث بها وقد فرغ العمر على هذه الأحوال وصرت كالشيء الموقوف على اضطهاد الأقرباء والبعداء.

فقال له إيسوذوروس: حقاً لقد فقت على الناس جميعاً في الصبر وغيره وحويت كل الفضائل ولقد تعزيت بها أنا كثيراً وصارت أحزاني وأوجاعي عندي كلا شيء.

وبعد ذلك العابد أسكن إيسوذوروس بجانبه وأعطاه وصايا وقوانين ليسلك بها. وبعد زمن قليل اعتل العابد فلازم إيسوذوروس خدمته بنشاط وفرح وكان يخدمه كأنه يخدم الإله من كل القلب والنية مرتجياً من الله حسن الثواب. فلما لمح إيسوذوروس قرب الوفاة تقدم إليه وقال: يا أبي وسيدي ومعلمي أنت تمضي الآن وتدعني وحيداً فكيف يحسن بالقوي والطبيب أن يترك الضعيف فأنا العليل إلى أين أذهب؟

فأجابه العابد: الذي وعد تلاميذه أن يكون معهم إلى الانقضاء يكون معك بالكفاية ويكمل سعيك وجهادك بكل سلام، ومع هذا اعلم أنني لست أفتر من الطلبة إلى الله من أجلك حتى يقر عيني بك، والآن قد دعاني واستبقاك أنت قليلاً لمصلحة يعلمها هو دوننا ثم أنه حُمَّ ساعة من الزمان ثم استفاق قليلاً ولم يقدر أن ينهض بل جلس وصلى طالباً إلى الله بتضرع وخشوع وجريان دموع قائلاً:

أشكرك يا الله لأنك لم تسر بي أعدائي وأهلتني وأهديتني لسبيل الحياة وحفظتني إلى التمام من طرق الضلال والآثام ولم تسلمني يوماً لأعدائي الذين كان قصدهم يقبضونني بشباك حيلهم ولم تخرجني من صيرتك وحصنتني عندك على الدوام بما أعطيتني إياه من اللذة التي للصبر الذي هو مر المذاق لأنك أريتني جميل المجازاة التي تكون للصابرين. اللهم أكمل عملي وأحفظه لي وأرسل لي عوناً من علو سماك ليدفع عني سلطان العدو ويدعهم يولون خائبين وأرسل أيضاً لي ملاك السلامة وجميع القديسين وتسلم نفسي في يديك لتصل إلى مسكنك المقدس وتحظى بالرضى والقبول والخلود في الراحة الأبدية واحفظ اللهم هذا الإنسان (إيسوذوروس) من الشرير هذا الذي استدعته خبرة صلاحك إلى السيرة الفاضلة وصار له من جهتك جميل النية وحسن الطوية فامنحه ما يؤمله ويرجوه من كرمك وهب له من عنايتك بقدر ما يليق بك ليصل إلى الغاية من رضاك وتوصله إلى ملكوتك الأبدي الذي وعدت به محبيك واغفر يارب لكل من أساء إليَّ وجدف عليَّ ولتسعني وإياهم رحمتك التي تسع كل شيء فإن إساءتهم لي قد صارت إحساناً بكرمك يا أكرم الأكرمين وصارت لي باباً للحياة الدائمة.

ما زال القديس العابد يطلب هكذا حتى أسلم روحه الطاهرة وأضاء وجهه بالنور حتى أنني أنا إيسوذوروس لم أكن أتمالك النظر إليه ثم مددت جسده وبدأت أكفنه مقبلاً إياه من هامة رأسه إلى قدميه ودموعي تنهمر على فراقه وحضر الكهنة والشعب وأكابر المدينة وجنزوه كما يليق بمثله وتبارك منه الجميع ودفنوه في مغارته المكان الذي فيه تعبد لله إلى يوم وفاته وسدوا بابها عليه ومضى كل واحد منهم إلى حال سبيله. بركة صلواته وقبول طلباته تكون مع جميعنا آمين.

ومن بعد هذا كان أهل المدينة يأتون ليتباركوا من جسده الطاهر وإن كان أحدهم قد ناله ضرر كان يطلب إلى القديس ليشفع له أمام الله لكي يخلص مما تألم به فكان كل أحد منهم ينال ما يتمناه بحسب إيمانه.

وأنا الحقير إيسوذوروس لبثت باكياً وحيداً وألزمت ما أعانني الرب عليه وقلت: يارب أنت الذي أرشدتني إلى هذا القديس وأنفعتني منه كثيراً والآن قد أخذته إليك وتركتني يتيماً منه فأسألك، يارب تقرب البعيد وتيسر لي العسير قبل أن يستحكم علىَّ صغر النفس فقد

لجأت إليك ولم يتبق لي معول إلا عليك وأنت نعم المولى والكل بيدك ومرجعهم إليك.

وبينما القديس إيسوذوروس يترنم بهذه الكلمات مثل معلمه العابد المقدم ذكره وقع على الأرض وأخذته حمى شديدة ولما استفاق منها وقد شعر برضى الله عليه فتح فاه وقال:

اللهم إني أشكرك لأنك عظمت صنيعك بي وجُدتَ عليَّ بأكثر مما أستحقه لكن هذه هي شجيتك المألوفة وشيمتك المعروفة منذ البدء وإلى النهاية. فأسألك أن تغفر لكل من أساء إليَّ وتسعني وإياهم رحمتك آمين.

ثم إن الرجل البار الفاضل المختار أنبا إيسوذوروس أسلم روحه الطاهرة بيد الرب الذي على اسمه جاهد القديس ونال إكليل الغلبة والظفر. وفي تلك المدة كان هناك إنسان يأتي إليه بالقوت اليومي فلما حضر على عادته وجد القديس إيسوذوروس قد تنيح فتألم من أجله ومضى نحو المدينة مسرعاً وأعلم هناك الآباء القسوس والشعب فخرجوا للوقت ومضوا إلى مغارته فكفنوه وجنزوه كما يليق به وكما فعلوا في تكفين معلمه العابد ثم واروه قبره بعد أن تباركوا منه وسدوا عليه باب مغارته ومضى كل منهم إلى موضعه.

سيدنا ربنا وإلهنا يسوع المسيح الذي من جهة تحننه وصلاحه جاء لخلاص البشر وأيضاً سيأتي في مجده مع جميع ملائكته المقدسين ليأخذنا إلى ملكوته الأبدي فهو قادر أن يعيننا جميعاً على خلاص نفوسنا بصلوات هذا القديس إيسوذوروس ومعلمه العابد وكل مصاف القديسين الذين أرضوا الرب بأعمالهم الصالحة.

والسبح والشكر لله دائماً أبدياً آمين

مكتبة دير السريان

ثلاث قصص تعليمية من الأدب الروحى

للقديس القس بطرس السدمنتى

FINE CO. (202) 24665111

٥,٠٠ جـ